سلسلة شهادات سورية 3

بين الإله المفقود والجسد المستعاد

فصول من الثورة السورية

نبراس شحيّد

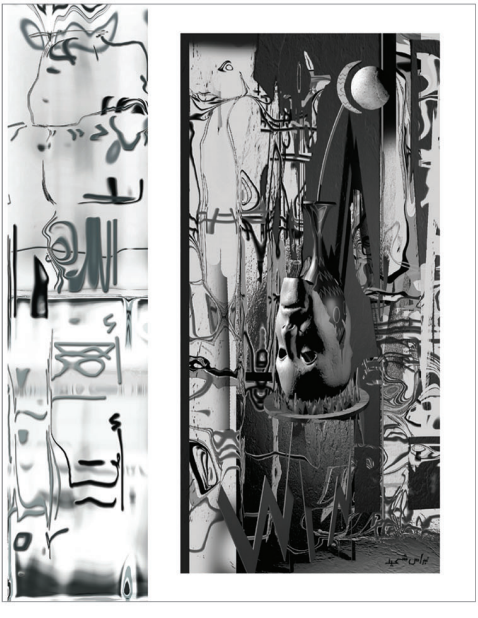

بيت المواطن
للنشر و التوزيع

بين الإله المفقود والجسد المستعاد

«فصول من الثورة السورية»

نبراس شحيّد

بين الإله المفقود والجسد المستعاد

«فصول من الثورة السورية»

سلسلة شهادات سورية -3- بين الإله المفقود والجسد المستعاد
نبراس شحيّد

الإخراج الفني: فايز علام
لوحة الغلاف: «ولادة قمر» نبراس شحيّد
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2014

ISBN: 978-9953-583-38-9

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961 +
فاكس: 750053 1 961 +
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

إلى من تحمّلا غموض هذا الصمت وشهوة الرقص
على حافة الهاوية، إلى من أحبا فراس عاشقاً الحياة
حتى في مجازفة الموت، إلى من أحباني بتيهي وقمصاني
المبهدلة، إلى ميساء وجمال أهدي هذا التبعثر...

في البحث عن «الإله» المفقود

عندما لا يبقى للسوريين غير اسم «الله»!

«السفير» 2012/1/21

لا يقارِب المقال هذا موضوعه لاهوتياً أو دينياً، بل ألْسُنياً وفلسفياً، متجنباً الخوض في المعتقدات الإيمانية. بمعنىً آخر، لا يعالج هذا المقال موضوعاً يخصّ «الذات الإلهية»، بل يتساءل بالأحرى عن مدلولات كلمة «الله» في واقعنا السوري الراهن.

لا يختلف اثنان اليوم على المكانة المتعاظمة التي تأخذها كلمة «الله» في فضاء شعارات الثورة. من عمق وحدة من تُركوا لمواجهة قدرهم، أو بالأحرى لمواجهة بعضهم بعضاً، يتضرع السوريون في تظاهراتهم، حتى بعض اللادينيين منهم، إلى «الله»: «يا الله ليس لنا إلاك!» لكن، كما أننا قد نتفق اليوم على أهمية اسم «الله» في الثورة السورية، فإننا سنختلف حتماً في دلالاته.

يشكّل هذا الاختلاف ضرورةً إنسانية، فكلمة «الله» تحيلنا تاريخياً إلى الفرقة أكثر منها إلى الوفاق، فَحَوْلَ معنى الكلمة هذه، نُسجت حقبٌ تاريخية، اختلفت في درجات سموّها أو انحطاطها، دافعةً بالبعض إلى قتل الآخرين، أو إلى الموت دفاعاً عن إحدى دلالات هذا الاسم. معنى ذلك أن كلمة «الله»، وإن توحّدت في صورتها اللغوية التي نستعملها جميعاً، اليوم وهنا، فإنها بالضرورة تعددية من حيث الدلالة الدينية والإيديولوجية والاجتماعية

والنفسية. تنبع هذه الضرورة أولاً من اختلاف مرجعياتنا كما ذكرت، أي من أسبابٍ ذاتيةٍ صرفة. لكن ضرورة التعددية هذه تتأتى أيضاً من طبيعة الموضوع المُسمّى: «اللّه»، لأنه قد يشير إلى «ذاتٍ» تتجاوزنا، أو إلى ضرورةٍ نفسية أو ثقافية تاريخية معيّنة تتعدى بالضرورة بساطة اللحظة الحاضرة. هكذا، يُفلت منا كيان الموضوع المراد تسميته: «اللّه»، وإن امتلكنا حروفه (ألف ـ لام ـ لام ـ هاء)، ليصير الاسم هذا، أكثر من أي اسمٍ آخر، جرحاً في جسد اللغة ينزف عجزَها عن مقاربة موضوعها الهارب. هنا، يصير الكلام على «اللّه» بالضرورة كلاماً يشير أيضاً إلى ما هو ليس بـ «اللّه»، على اعتبار اللغة عاجزةً أمام آفاق مدلولات ما يُراد تسميته. لذا، يدفعنا التفكير في اسم «اللّه» إلى تجاوز مطلقية المرجعية التي تسود الخطاب الديني التقليدي (وأيضاً الخطاب الإلحادي التقليدي)، ليصبح الاسم حالةً من التساؤل أكثر منه حالةً من التوكيد. من هذا المنظور، يُفرِغ اسم «اللّه» ذاته دائماً، لأنه يفلت من سجن الدلالة الأحادية، فيصير الاسم عابرَ سبيلٍ يتجلى ويتخفى في لعبة غربة اللغة التي تصنعُنا كائناتٍ متكلمةً.

من قلب غربة اللغة هذه، يصوغ السوريون اليوم صرختهم إلى «اللّه» الذي «لم يبقَ لهم سواه» كما يهتفون، ليقولوا شيئاً عن غربة وطنهم. من عمق القمع والمعاناة، يلتجئ مسلمٌ ومسيحيٌّ وعلمانيٌّ إلى هذا الاسم الغامض: «اللّه»، ليبثّ فيه صرخة ألمه في البلد الكسير؛ ويهتف متظاهرٌ لاأدريٌّ أو ملحدٌ إلى «اللّه»، ليصير هذا الاسم دلالةً على لا معقوليةِ واقعنا الذي تفشّى فيه الموت! هكذا، وعلى الرغم من اختلاف دلالات الاسم الهارب، يستطيع كثيرٌ من السوريين اليوم أن يتفقوا، أقلّه، على إحداها، وهي ألمنا الممتزج بالتوق إلى الخلاص! بهذا المعنى، يمكن لاسم «اللّه» أن يكون جامعاً، عندما تصير فيه غربةُ الإنسان المتألم غربةَ وطنٍ تتجلى في حكاياتنا المؤلمة، من دون أن تلغي تعددية الدلالات، كما تجلت مؤخراً في جسد الرضيعة عفاف السراقبي، لتصوغ مجدداً ذاكرتنا السورية.

من المنظور هذا، يمكن لكلمة «اللّه»، في الواقع السوري اليوم، أن تعيد صوغ شيءٍ من ملامح وطنٍ جديدٍ نحلم به، كما يمكنها أن تجهض الحلمَ عندما تُختزل إلى وحدانية الدلالة. يحدث هذا عندما يصير «اللّه» اسماً يحتمي خلفه بعض أبناء «الأقليات»، لتُسجَن دلالة الاسم في رهاب الإسلامويين، فيتفشّى فينا منطق الدفاع عن عبوديّة الحالة الراهنة. كذلك يصير اسم «اللّه» خطراً على الوطن، حين تتجمّد دلالاته، بحسب منطق بعض أبناء «الأكثرية»، في مضمونٍ واحدٍ، يُقدَّم فيه الصراع في سورية بشكلٍ مبسّط على أنه مجرد صراعٍ دينيٍّ بين طائفةٍ حاكمة وغالبيةٍ محكومة. هنا، يعود بنا اسم «اللّه» إلى التفرقة أكثر منه إلى الجمع الذي يحترم الاختلاف، في الوقت الذي تُجبِر فيه طبيعةُ هذا الاسم الخطابَ الديني، أياً يكن، على الاعتراف بعجزه، لينقلب فشلُ اللغة نجاحاً، حين يُترك للاسم الهارب ترجمةَ غربتنا الجماعيّة. بهذا المعنى، لا بدَّ من تحرير دلالة اسم «اللّه» من سطوة المشايخ والكهّان، ليصير الاسم المبهم خيمةً يتوحّد فيها جرح من يُذبحون بصمتٍ جنائزيّ مرعب.

هكذا يصير اسم «اللّه» في صراخ السوريين وحدة هَمٍّ، في زمن يعشّش فيه الموت حتى بين شقوق الجدران تقطر رغبةً في القتل؛ زمنٌ لم يبقَ فيه للإنسان من ملجأ إلا غربة الاسم الهارب: «اللّه»، وآفاقه التي قد تبثُّ الرجاء.

سورية بين أسماء «الله» وأسماء الموت

«السفير» 2012/3/7

المشهد المتكرّر

تتعدّد أسماء الموت في سورية: الموت بشظية قذيفة، الموت برصاصة قناص، الموت تحت التعذيب، الموت تحت الأنقاض، الموت من شحّ الدواء. تتعدّد أسماء الموت، والموت واحد، يرسمه الفنانون السوريون اليوم بكمراتهم، فترشح إلى الذاكرة هذه اللوحة المؤلمة التي بقيت من دون توقيع (2011/10/23): طارق الأحدب ملقىً على الأرض، والمشهد معتمٌ في الخالدية، ورصاص القناصة يحول دون انتشاله. الجميع يترقب. يندفع شابٌ باتجاه الجثة، فيصرخ أحد الموجودين قائلاً: «الله حاميك!»، لكن... ما إن يبتدئ محمد فاضل بجرّ الجسد الساكن إلى الحارة الضيّقة حتى يخرّ شهيداً، فيتردّد في الذاكرة صوت انفجار الطلقة النارية، ويتفجّر السائل القاتم من الجثة الصريعة. جثتان مكوّمتان إحداهما على الأخرى، في مشهدٍ مفجع، والإنارة خافتة. كان هذا العناق الأخير، وتتعالى أصوات التكبير!

تكرار الاسم

يتكرَّر مشهد الموت هذا كل يوم، ومعه دعاء المستضعفين إلى الله، الذي لا «يحمي» الشهداء، كما نتمنى! على الرغم من ذلك، تثابر النسوة

النائحات في طلب الانتقام لهم. لم يحمهم الله كما نرغب، لكن المشيّعين لا يكفّون عن قلقلة الصمت الأزرق: «يا الله لم يبقَ لنا سواك!»؛ لم يحمهم الله، لكننا لم نتوقّف يوماً عن مناجاته من شوارع الموت، ومن أقبية السجون، ومن أمام برادات المستشفى. مسلمون، مسيحيون، لادينيون، لا فرق، فالموت واحد، والجميع يذكر اسم «الله» اليوم في سورية! هو الإيمان ربما، أو الخوف من شيءٍ ما، ربما، أو التضامن، ربما، أو القلق من اللاشيء. أياً يكن، لا يهم، فمن المؤكّد أن أسماء الموت عديدة، وأن أسماء «الله» كثيرة، وأن الأسماء تلازمت، وأن الموت واحد.

الاسم القاتل

لكن، أن يرتبط اسم «الله» بالموت أمرٌ، وأن يصير الموتُ اسماً من أسماء «الله» أمرٌ آخر! يصير اسم «الله» قاتلاً عندما تُختزل الثورة عند البعض في حربٍ بين طائفتين؛ يصير اسم «الله» قاتلاً عندما يوزِّع التكفيريّون اللعنات يمنةً ويسرة؛ يصير اسم «الله» قاتلاً عندما يبرِّر علماء النظام إبادة المتظاهرين؛ يصير اسم «الله» ديكتاتوراً عندما يعادي حرية الإنسان؛ يصير اسم «الله» ظالماً عندما يحدِّد دين رئيس الدولة؛ يصير اسم «الله» موتاً عندما لا نعود نختلف في دلالاته؛ يصير اسم «الله» خطراً عندما يُراد منه الاتكاليّة لا التوكل؛ يصير اسم «الله» صبيانياً عندما تدعو بعض الكنائس إلى التصويت بالموافقة على «الدستور الجديد» في شتاء الرصاص، وكأنَّ الشعوب أطفالٌ لا رأي لها؛ يصير اسم «الله» مدمِّراً عندما يصير الاسم بديلاً عن رغبتنا في الانتقام... لهذا، يهجر البعض اسم «الله» عندما يصير موتاً مرعباً!

الاسم الآخر

تقول السيدة إنصاف محمد، المفجوعة بولدها، لمن يضمرون الشر لقاتله (2011/12/29): «من أجل الله، أحِبّوا قبل كل شيءٍ من يكرهكم،

كي يتعلم كيف يحب!»، فيقولون لها: «لكن الحقد يملأ قلبه!»، فتجيب: «يوماً بعد يوم سيتعلم... من أجل الله أحبوا بعضكم بعضاً!» أيّاً يكن سبب الموت، وأيّاً تكن هويّة القاتل، وبغضّ النظر عن العقائد، وسواءٌ آمنا بوجود الله أم لم نؤمن، تنسف كلمات الأم هذه أجيالاً مديدة من الأسماء المرعبة! إنه «الله» باسمٍ جديد...

آخر الأسماء

أحد آلاف الشهداء السوريين مات من دون دين! كان يصرخ مع المتظاهرين: «على الجنة رايحين شهداء بالملايين!»؛ كان يصرخ لأنه معهم، لأنه يحبهم، لكنه لم يكن مؤمناً! رصاصةٌ «ممانِعة» أردته شهيداً، لكن، من دون أن يكون له إلهٌ يحميه أو يكافئه أو ينتقم له. مات من دون سماءٍ تظلله. مات عارياً! لم يحلم بجنة، ولم يخف من نار، ولم يرغب في بطولة، ولم يشتهِ الموت. مات من دون «لمَ؟»، فكان لكل المتدينين مصدر رجاء! مات فذكّرنا بأن الوطن لا دين له، وبأن الحرية لا دين لها، وبأن «الله» لا دين له، وبأن «المجانية» قد تكون من أسمائه الحسنى!

جمعة الآلام السوريّة

«السفير» 2012/4/7

«الإله» المفقود

في كتاب «الليل» لإيلي فيسيل قصّةٌ مؤلمةٌ حصلت في معتقل «أوشفيتز» الرهيب، أنقلها هنا بشِعريّتها، راجياً من القارئ الكريم ألا يأخذها بحَرْفيّتها: في أحد الأيام، تمَّ جمع المساجين ليشاهدوا شنق مجموعة من المعتقلين، وبينهم طفلٌ نحيلٌ في الثانية عشرة من عمره. سحب الجنود الكرسي من تحت قدمي الطفل، لكنه لم يختنق بسرعة، ولم يكن له من الوزن ما يكفي لتنكسر عنقه، فظلَّ معلقاً في الهواء ينازع دهراً قبل أن يخلّصه الموت. أحد المساجين قال بصوتٍ مضطرب: «أين هو الله؟»، لكن لا مجيب! وبعد بضع دقائق من الصمت الخانق، والطفل المنازع ما زال حيّاً، ودموعه المالحة تنهمر من عيون الجميع، يكرّر السائل تساؤله بإلحاح: «أين هو الله؟»، فيجيب قلب الكاتب: «إنه معلَّقٌ على المشنقة!».

بريد «الله»

أين هو الله في سورية؟ لا أعرف! لكن، إن كان «الله» رحيماً، كما يقال، فلا يمكن إلا أن يسكن في جسد عفاف المهشّم، وجلد مصطفى المتفحّم، وحنجرة إبراهيم المبتورة، وورود غياث الذابلة، ودموع كل ضحيّة! منذ زمنٍ بعيد، لم يعد «الله» يجلس كثيراً في الكنائس والجوامع، لأنه ملَّ رائحة

البخور وضجيج الخُطب حين لا تعرف إلا لغة الخوف أو الوعيد، كما سئم ألحان تلك الترانيم التي كَنَسَتِ الإنسان كما يُكنس الغبار، وضَجِر من أصوات الأجراس والمؤذنين حين صارت حبوباً مخدرة... منذ زمنٍ بعيد، وجد «اللّه» بيوتاً أنسب من المذابح القديمة، لأنه لم يكن متديّناً، وفضّل على المعابد الشوارعَ الطويلة، والمقاهي المكتظة بالحالمين، وجروح المشردين، كما أحب أطراف الأزقة، حيث يجلس المتسولون، ويسترق بائعو الورود النظرات بصمت... منذ زمنٍ بعيد، هجر «اللّه» مذابحه القديمة، وكتب على أحد جدران حمص عنوانه الجديد: «بيتي مآسي السوريين، وخيم لاجئيهم، وقلوبهم الفسيحة!».

العرش الفارغ

في الجمعة العظيمة منذ ألفي عام، صلبوا يسوع الناصري ـ بحسب الإيمان المسيحي ـ ومعه لصّان. وفي الجمعة العظيمة من العام الماضي، تجاوز عدد الشهداء الذين سقطوا برصاص الأمن في سورية، وللمرة الأولى، المئة! عندئذ، تأبّط «اللّه» حمص ورحل ليسكن شارعاً وزقاقاً وخيمة، تاركاً للطائفيّين أصنامهم، فصار عرشُ «اللّه» فارغاً، لأنّ القلب صار مذبحَه ومحرابه، وصار «اللّه» ألفةً في كل غريب، وحياةً في كل شهيد، ووطناً في كل لاجئ، ولم يعد «اللّه» مُلْكاً لأحد، وصار الجرح إلهيّاً، والنصرُ إنساناً يعشق الحرية.

مِلْحٌ وموسيقا

هناك في الجلجلة، حيث تجمّع المئات ليشاهدوا ناصريّاً معلّقاً على الخشبة، هناك حيث اختنقت الأصوات وتعالى النحيب، هناك حيث صفّق بعضهم، وأغمض آخرون عيونهم، هناك حيث تجمّع الشبّيحة، هناك حيث انهالت نيران المدافع على المتظاهرين الوافدين من دمشق، هناك حيث قامت ألف طائفةٍ وطائفة، هناك حيث كانت نظرات الأطفال مالحة، هناك

حيث أَحرق العسكر محاصيل الذرة، هناك حيث اغتُصِبت نساءٌ في معمل السكر، هناك حيث انقرضت «بابا عمرو» إلا من الذاكرة، هناك حيث أمطرت السماء ألف صمتٍ وكلمة، هناك، شاهدتُ عصفوراً ما زال يغرّد للحرية، و«إلهاً» لا يملك سياطاً، ووطناً يبحث عن سكّانه..

«الإله» المُستعاد

عندما سقط في الجمعة العظيمة أكثر من مئة شهيد، وصار الألم طحينَ السوريّين، وصار المشرَّدون عنوان «اللّه» الجديد، واليتامى أحباءه، والمظلومين أصفياءه، طالب «اللّه» الدينَ مجدّداً ألا يكون ديكتاتوراً، وألا يكون انغلاقاً، وصار من واجب الدين أن يحتفل بالإنسان، أمؤمناً كان أم لا، وصار بإمكان الإنسان أن يحب بحريّة أكثر، لأنه هكذا أحب «اللّه» العالم!

الصرخة السوريّة و«الإله» المفقود

«السفير» 2012/4/14

الصرخة

يستولي على بعضنا شعورٌ عامٌ بالإحباط، فالنظام مسرفٌ في القتل، والآفاق السياسية شبه مغلقة، والكثير من الشباب يُساق إلى العنف، والمجتمع الدولي يتلاعب بنا، حتى «اللّه» ـ قال لي أحد الأصدقاء ـ «تخلّى عنا»! كتبت عشتار على حائط «الفايسبوك»: «إلهي لماذا تركتنا وحدنا؟؟ ألم نقضِ من العمر ما يكفي بحثاً عنك؟؟ فَلِمَ لا تجدنا؟؟ وجدناك منذ طفولتنا.. تعمّدنا.. وقرأنا الفاتحة.. بكينا الحسن والحسين.. ولمْ تجدنا»!

«إلهي، إلهي، لمَ تركتني؟»

قَبْل الصرخة هذه بألفي عام، صرخ في مثل هذا الوقت من السنة ناصريٌّ مصلوبٌ على خشبة: «إلهي، إلهي، لِمَ تركتني؟». استطاع بعضهم تسكين شيءٍ من حدة الكلمات هذه، حين تمَّ تأويلها انطلاقاً من أحد المزامير الذي يبتدئ بها، منتهياً بتسليم الأمر «للّه». لكن الإحالة على المزمور هذا، وإن هدّأت شيئاً من قلق السؤال، فإنها لا تستطيع أن تنزع من الكلمات هذه صرختها وما تخبئُه من ألمٍ واستغرابٍ موجع، لتتضاعف حدّتُها حين تُجرَّد من إطارها الإيمانيّ، فتعبِّر حينئذ عن مأساة الإنسان المرمي في العالم. يمكن للصرخة هنا، حين تُؤَوَّل بطريقةٍ أشدّ راديكالية،

أن تعبِّر عمّا سمّاه بعض الفلاسفة «موت الله»، للدلالة على سماءٍ صمّاء لا تسمع صراخ الإنسان، أو على ما أطلق عليه بعض اللاهوتيين والفلاسفة أيضاً اسم «موت الله»، لكن مجازيّاً، للدلالة على موت تصوّراتنا القديمة عن «الإله»، أو على تبنّي «الله» جوهرياً ألم الإنسان وموته.

في جدليّة الألم

أيّاً يكن توجهنا الديني أو الفلسفي، ستبقى الكلمات الموجعة هذه صرخةً في وجه اللامعقول. وكصرخة، ستقوم هذه الكلمات على حالٍ جدليّةٍ تقول شدة الألم، لكن لتقاومه، بالتعبير عنه. تُبدِّلُ الصرخة من طبيعة الألم، حين تكون جدلية، لتصير الصرخة كلمة، وليصير الوجع تعبيراً، ويضيف السوريون: فناً وشعاراتٍ وأغنيات! هكذا، تستحضِر الصرخة حياةَ الإنسان الداخليّة، بعريها، بعيداً عن التزيّن أو الحشمة، لكن، لتجعل من الألم كلمةً تتجاوز هيجان العواطف، فتقطع عليه الطريق كي لا يصير وحشاً، أو غصّةً تخنق صاحبها في سكرات اليأس. هكذا، مثلاً، تحوّلت حماة الثمانينيات، للمرة الأولى في تاريخنا، من صرخةٍ خام في ذاكرة السوريين، إلى ثورة لغةٍ أفلتت من وجع الضمير وأقفاص الرقابة، فصارت في شباط المنصرم، بعد ثلاثين عاماً، تظاهرةً بصرية، صوتية وكتابية، تواصلية، انتزعت من الألم مطلقيّته، كما انتزعت منه سُميّته، لتجعل منه ذاكرةً قابلةً للشفاء!

في جدليّة الحضور

كما أن الصرخة تقول الألم وتقاومه في الوقت ذاته، نراها، على مستوىً جدليٍّ آخر، تتوجّه إلى «الله»، لكن لتسأله بشكل غير مباشر عن صمته: «يا الله.. عجّل نصرك يا الله!» .ويذهب أحد الرسوم الكاريكاتورية ليصوّر أناساً باتوا يقولون: «يا الله، ما ضَلّ غيرنا يا الله»، ثم «يا الله، شو صار معك يا الله؟»، ليعقِّب أحدهم ببراءة: «أستغفر الله، لكنها فشّة خلق»! هكذا، يعبّر هذا المعلّقُ وغيره عن استغرابهم من «إلهٍ» يحضر في

اللغة، ويغيب عن دائرة القرار السياسي؛ «إله» لا يكفّ عنا، كما نتمنى، ظُلمَ المعتدين (أقلّها في الدنيا، لمن يؤمنون بالآخرة)، ولا يحُول دون موت الأبرياء، وما أكثر الطغاة الذين ماتوا والابتسامة ترتسم على وجوههم! هكذا، تتوجّه الصرخة إلى «اللّه»، معترفةً بشيءٍ من حضوره، ولو لغويّاً، لتضع إصبعها في جرح غيابه الوجوديّ، فترسم شكلاً جديداً من الحضور الذي لا ينفي الغياب بل يؤكده. هنا، يمكن للصرخة، عندما تعي ذاتها، أن تشكّل وعياً جديداً لا يرى في «اللّه» «حلّال مشاكل»، بل، وقبل كل شيءٍ، مرجعيّةً أخلاقيّة، وأحياناً صوفيّة، تحترم صيرورة التاريخ، لتَغيب عنه سياسياً، وتحضر فيه إنسانيّاً. هكذا، تثور الصرخة على استقرار العالم القديم، فتضعنا أمام هوّة الغياب وما تحمله من قلقٍ وآفاق خلّاقة.

في جدليّة «التجديف»

تَلِدُ الجدليّةُ الثانية أخرى ثالثةً، فمَن أطلق الصرخة إلى «اللّه» مات بتهمة «التجديف»، فبعد استجواب الناصريّ، شقَّ رئيس الكهنة ثيابه وقال: «تجديفٌ! ما رأيكم؟»، فأجابوه: «إنه يستوجب الموت!». بالطريقة هذه، مات الصالحُ كمجدّف، لأنه لم يدخل في القوالب الدينيّة الموجودة آنذاك، فكان موته ثورةً على مطلقيّة الدين. هكذا «كُفّر» الصارخ من عمق الناصرة، ومات «ملعوناً»، لأنه بشّر بـ «إلهٍ» غريب، يؤمن بالإنسان الحر، ويتألم في شعبه! على هذا المستوى، يمكن لصرخةَ عشتار، صرختَنا، عندما تعي ذاتها، أن تكون ثورةً على سطوة القوالب الدينية على المجتمع، أقديمةً كانت أم تلك التي أنتجها واقع الثورة، من ثقافة اتكاليّة أو تكفيريّة أو إقصائية أو أقلّويّة تجترّ يأسها في مرارة التكرار، وتخاف من جديد الحياة.

ثورة الصرخة

ولأنّ الصرخة هذه لا تعيش من ثقل الحضور، بل من تغلغل الغياب فيه، ولأنها تثور على حضور ألمٍ مطلقٍ غير قادرٍ على التعبير عن ذاته، ولأنها تثور

على حضور «إلهٍ» مطلقٍ يهمّش التاريخ، ولأنها تثور على حالةٍ دينيّةٍ مطلقةٍ لا تعرف إلّا لغة الخوف والوعيد، يمكن لصرخةٍ، عندما تُعقلَن، أن تحمي منطق العدالة من آليات الانتقام. الانتقام أيضاً قائمٌ على حضورٍ مطلقٍ للألم، لا يملك من أساليب التعبير عن نفسه إلّا الانفجار، أو الإحالة، في ساعة العجز، إلى «إلهٍ» يردُّ الصاع صاعَيْن، مُشبِعاً بذلك مطلقيّة الألم؛ في المقابل، تقبل العدالة بوسيطٍ ثالث، لِتَسِمَ الحضور بنوعٍ من الغياب. هكذا، تشكّل عقلنة هذه الصرخة ثورةً ثقافيةً مجتمعيةً، وأحياناً دينية، قد تستطيع يوماً تفكيك شيءٍ من بُنى المطلق المتعدّدة التي تعمل في ثقافتنا ولغتنا بشكلٍ لا واعٍ مقزِّمةً الإنسان. من هذا المنظور، يمكن لحقيقة الصرخة، التي بدت يائسةً مُحبَطة، أن تتجلى أملاً، لا بل رجاءً في الحياة، يقع على عاتقنا جميعاً تحليلُها وعقلنتها ودفعها إلى الأمام.

أيقونات جديدة في زمن الثورة

«النهار» 2012/11/17

حبّ في حشا الغريب

في شهر آب المنصرم، اشتد الحصار على إحدى مناطق ريف دمشق. يومذاك، قبل أن يُدمَّر المكان، اعتلى القناصون سطوح البنايات المجاورة، وبدأت طائرات الهليكوبتر بإمطار منازل الأهالي بنيرانها. أحد الناشطين المعروفين في المنطقة، الذي لم يكن من البلدة المنكوبة، لم يستطع البقاء في منزله الآمن البعيد، فأصدقاؤه يُقتَلون! من أجل هذا، قرر الغريب التسلل إلى مكان الموت، ونجح بعد محاولات عدة في الوصول إلى المستشفى الميداني حيث تمَّ إسعاف الجرحى. سجّل ليلتئذ أسماء سبعة عشر شهيداً، ولا يزال أنين الجرحى الثلاثين الممددين على البلاط حيّاً في ذاكرته. عند الخامسة فجراً هدأت النيران قليلاً، فاغتنمت العائلات الفرصة للنزوح إلى حدائق دمشق هرباً من الموت المقبل. ساعد ناشطو الحي، ومعهم الغريب، الأهالي بالفرار، لكن شعور العجز أمام فداحة المشاهد كان أشد قسوةً من أن يستطيع صديقنا احتماله، لكن ما العمل؟ لم يبق عند الشاب المسكين نقودٌ يساند بها الأهالي، فقد أعطى القليل الذي عنده حتى القرش الأخير. إحدى الممرضات المقربات من صديقنا قررت ليلتذاك، في لحظة يأس، أن تحمل سلاحاً تدافع به عن أهلها، أما هو فقد خطرت على باله فكرةٌ أخرى، بثّها بهدوء في أذن الفتاة: «سأبيع إحدى

كِليتيّ لأشتري دواءً للجرحى!». ارتبكت الشابة أمام هذه الفكرة المخيفة، أما الغريب فقد كان واثقاً من طلبه: «ساعديني على بيعها»، ليضيف ساخراً: «لكنني أريد سعراً دسماً!». هزت الفتاة رأسها بهدوء، في محاولة يائسة لإخفاء الماء الذي انسلَّ من العين بصمت..

بين الجنة والعدم

تأخذ هذه القصة بعداً خاصاً، حين نعلم أن الشاب ليس غريباً عن المنطقة التي يعمل فيها ناشطاً وحسب، بل غريبٌ أيضاً عن عاداتها وإيمانها، فالبلدة محافظةٌ تقليديةٌ، أما صديقنا فـ«لا أدري»، ولا يشاطر أهلها حالهم الإيمانية! قد تدفعنا طبيعة مجتمعنا إلى مقاربة نضال شعبنا من منظور ديني، لنرى في تطلعنا إلى الحرية والكرامة نوعاً من التعبير الصادق عن «الإيمان بالله» و«نصرة الحق»، وربما أيضاً عن انسجام الإنسان «المؤمن» مع ذاته في سعيه على الصعيدين الديني والدنيوي. إلا أن هذا النضال قد يأخذ أيضاً، بسبب عوامل عدة (أهمها العنف اللامعقول الممارس على شعبنا، وتواطؤ المجتمع الدولي مع ما يجري في بلدنا)، أشكالاً متطرفة، ليرسم، أول ما يرسم، انفصال الإنسان «المؤمن» عن الواقع، وانقسامه على ذاته. لكن، أياً تكن علاقة الدين بالثورة، في نوسانها بين التشدّد والاعتدال، سيعطي الدينُ، في غالبية الأحيان، الباحثَ «المتديّن» نوعاً من الرضا: إنه الرجاء برحمة «الله» وعدله، ورجاء الانتصار على الموت. من هذا المنطلق، تكتسب قصة الشاب التي سُردت أعلاه، وما شابهها من قصص، أهميةً خاصة، فلا الإيمان محرّكها، ولا «جنة موعودة» ينتظرها صديقنا، ولا العزاء الديني المرافق لنضال المؤمنين حاضر فيها!

أيقونات هجرت جدران المعابد

بالطبع، قد تعطي التضحية بالذات صاحبَها نوعاً من الرضا، حين

تنسجم مع مبادئه الشخصية، وقد تحقق ربما ضرباً من الأحلام البطولية أو الصور النمطية اللاواعية العاملة في نفس كلّ واحد منا. لكن ذلك لا ينفي حالة الهوة الرهيبة التي قد تستولي على الإنسان اللاأدري (والمتدين أحياناً) أمام «العدم» المقبل؛ رهبةٌ قد تستحوذ عليه قبل أن يصير الجسد تراباً والإنسان محض حكاية يسردها من بقي على قيد الحياة. لذا قد تصير تضحية اللاأدري واستشهاده، في وقتٍ يكثر فيه الكلام على الطائفية في الشارع السوري، مخصِّبةً إلى الحد الذي تستطيع معه أن تطرح علينا، بصدق وجوديّ، السؤال المؤرّق: لِمَ أقاوم ولِمَ أموت؟ أبحثاً عن «جنة موعودة»، أم يأساً من الواقع، أم نصرةً لديني، أم إيماناً مني، قبل كل شيء، بحقّنا في الحرية، وبكرامة الإنسان أياً يكن؟ تعرض علينا تضحية اللاأدري، شرط أن نتجنب هي أيضاً التزمّت الذي يطغى على بعض الإيديولوجيات، نوعاً من التزامٍ جديدٍ يختلف عن منطق الثواب والعقاب. لذا قد يستطيع هذا الحب اللاأدري الملتزم الواقع أن يدفع المتدين، حين تسمح له نفسه بأن يتعلّم من الغريب، إلى استقبال التزامه الديني بحلة جديدة: حلة المجانية حيث يكون الحب للحب فقط، والعبادة للعبادة، لا طمعاً في الثواب ولا خوفاً من العقاب! هكذا يمكن لصديقنا الذي بقي خارج الأطر الدينية السائدة، أن يصير، على الرغم من البعد أو ربما بسببه، أيقونة حيّة نتأمل فيها إيماننا، وفيها يتوشح الدين بألوان صوفية حيّة، لتتمتم الشفاه مع الصِدّيقة رابعة العدوية: «اللهم إن كنت أعبدك خوفاً من نارك فاحرقني بنار جهنم، وإذا كنت أعبدك طمعاً في جنّتك فاصرفني منها. أما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمني من رؤية وجهك الكريم!».

في «نزوح الله» والشعب الوحيد

«النهار» 2013/1/23

وحيدٌ وحيدٌ وحيد...

لافتةٌ ما، رفعها متظاهرٌ ما، في مكانٍ ما، ليقول كل شيء دفعةً واحدة: «وحيدٌ وحيدٌ وحيد، الشعب السوري وحيد»! جمالية هذه الصرخة الجارحة لا تكمن فقط في فهمها العميق لغربة شعبنا، بل أيضاً في براعة لعبها اللغوي على معنيي كلمة «الوحدة»: الاتحاد واليُتم. تعبّر اللافتة هذه عن يتم الثورة السورية، وفي الوقت ذاته، نراها توقظ فينا الشعارَ الأصليّ الذي منه اشتُقّت («واحد واحد واحد، الشعب السوري واحد»)، فتحمي في ذاكرتها، على الرغم مما تعبّر عنه من تمزق، رغبة شعب وحيد يريد أن يكون واحداً في معركته الوجودية ضد العدم: عدمية النظام المستعدة لإفناء البلد من أجل البقاء («الأسد أو لا أحد» كما تقول بصدق «غريزة النظام أو لا شعوره السياسي» المتمثلان في ظاهرة الشبيحة)؛ وعدمية التشكيلات المتطرفة التي تتبنى منطق النظام ذاته، «نحن أو العدم» (ياسين الحاج صالح، «الأسد أو لا أحد/ الأسد أو نحرق البلد: نظام العدمية السياسية»، النهار 2012/10/6). من المسافة إذاً بين «وحدة» الاتحاد و«وحدة» اليتم في مقارعة العدمية، تعبّر اللافتة هذه عن الإرهاق الوجودي المتسلّل من الشرخ الفاضح بين الحلم والواقع العبثي، وفيه سوريون يبيدون سوريين، والعالم يطيل التصفيق، ليمتد أمد الموت.

في الغياب أو ما يشبهه

بين العدمية والعبثية، قد يتعمّق شعور الوحدة هذا عند الإنسان السوري ليأخذ أحياناً شكلاً وجودياً أكثر كثافةً، حين تنقطع انسيابية العالم القديم الذي عليه اعتدنا، بمسلّماته ومعتقداته، فيظهر غريباً جامحاً لا يمكن حصره في مصطلحات ونظريات ورؤى، عارياً وقد مزّق ما ألبسناه من حلل وأفكار. أمام جثة محمد الملسي، المعلّقة على السلك، وأمام جوع بناته اللواتي فارقهن منتحراً لأنه لم يجد لهن طعاماً، قد تتزلزل مجموعةٌ من ثوابت فهمنا لوجودنا وأشكال حياتنا الموروثة. أمام الجثة المعلّقة، قد تهتزّ نظرياتنا الماورائية كلها، ليصير حضور الله سؤالاً يطرح ذاته على بعضنا: «أين هو الإله مما يجري اليوم في سورية؟»، يتساءل أحد الأصدقاء، لتجيب صديقةٌ أخرى بيأس: «لو كان الله موجوداً، لما مات أطفالنا!». تأخذ الوحدة هنا شكلاً جذرياً، فالإنسان المتألم قد يجد ذاته وحيداً، حتى من الله الذي به آمن سابقاً، حين يقارب ألمه انطلاقاً من التناقض بين عدمية الواقع العبثي من جهةٍ أولى، والمفهوم السائد عن إلهٍ يعتني بخليقته من جهةٍ ثانية: «إذا أراد الإله أن يمنع الشر، لكنه لا يقدر، فهو ليس بقدير، وهذا لا يتناسب وطبيعته. وإذا كان يقدر لكنه لا يريد، حينئذ يكون شريراً، وهذا أمرٌ غريبٌ عن طبيعته (...) أما إذا أراد الله إلغاء الشر وكان يقدر على ذلك، وهذا ما يناسب طبيعته، فمن أين يأتي الشر؟» (أبيقور، بتصرّف).

أياً تكن الأجوبة الفلسفية واللاهوتية على هذه المعضلة، وأياً تكن تصوراتنا عن احترام الله لحرية الإنسان إلى حدٍّ يصير فيه هذا الأخير قادراً على الشر بأنواعه كافةً، ستبقى الأجوبة كلها، على الرغم من متانة بعضها، هزيلةً أمام صرخة طفل متألم، أو دموع أمٍّ ثكلى، أو نحيب أبٍ على أطفاله الذين قضوا في مجزرة حلفايا. أمام عمق المأساة، تبدو الأجوبة سخيفة على أنواعها، لأن الإجابة النظرية عن الألم، مهما قويت حبكتها، لا يمكن أن تلحم شفاه جراحنا! لذا سيبقى «غياب الإله»، أو ما يشبهه، هوةً

لا يمكن ردمها، ولا يمكن الاستخفاف بها واللجوء إلى الأجوبة الجاهزة لتفاديها. الهوة سحيقة، ولا إجابة نظرية تشفي ألم الصرخة الوجودية وما تتجرعه من سكرات الغياب، بل ربما «شبه إجابةٍ» حياتية تقاوم الغياب بحضورٍ جديد: الحضور لضحايا العدمية، لهؤلاء الذين مات أهلهم وشُرّدت عائلاتهم وسخر الزمان من وجودهم! لا إجابة تشفي الجرح، بل التزام به حتى النهاية...

في «نزوح الله»

مع تنامي السؤال الإشكالي عن علاقة الإله مع العالم وما يترتب عليه من نتائج نقدية للمعتقدات الدينية السائدة، نشهد في المقابل تنامياً عميقاً للشعور الديني عند غالبية السوريين. أمام الوحدة السحيقة التي نعيشها اليوم، أمام العبثية والعدمية، وأمام انهيار التوازنات القديمة، ينقلب الدين، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، ملجأً يقصده الكثير من المتعبين أو الباحثين عن المعنى، أو الراجين خلاصاً يتجاوز قتامة حاضرنا ولا عدالته. لذا، لا يمكننا فصل تعاظم الظاهرة الدينية اليوم، أو تعاظم الشك فيها، عن ظاهرة القلق أمام كثافة حضور الموت حولنا، على نحوٍ تصير فيه الصرخة التي يطلقها بعض الشباب عن حضور الله تساؤلاً عميقاً قد يدفع بعضنا، خارجاً عن آليات الدفاع عن النفس، إلى مزيدٍ من البحث الوجودي الصادق: هل «الإله» الذي نؤمن به هو الوجه الآخر لحاجاتنا أم هو الآخر؟ بكلماتٍ ثانية: هل نعيش التجربة الدينية كتعويضٍ ينكر الوحدة التي تخترق وجودنا، أم يُعاش «الإلهي» من ألم الشوق الذي يقبل الوجود بما يحمله من غيابٍ، ليجد ربما نوراً «إلهياً» جديداً في أعماق الهاوية؟ بمعنى آخر، هل تتحدّد علاقتنا مع «الإلهي» كخبرة انفتاح على المجهول الذي قد يسكن صمت السماء، أم تبقى تقوقعاً على الذات تنقلب معه التجربة الدينية تجربةً مرآتية لا يجد فيها الآخر مكاناً، فيصير «الإلهي» مجرد امتداد لذواتنا؟

يتنامى خطر الانغلاق الديني في لحظات الوحدة مع تعاظم فشل المؤسسات الدينية في مواكبة حلم الثورة، أولاً بسبب ارتباطاتها التاريخية، لا بل حتى البنيوية بأنظمةٍ ديكتاتورية سلطوية؛ ثانياً بسبب اختزالها الثورةَ، في غالبية الأحيان، إلى حالٍ طائفية، أقلّوية أو أكثرية؛ ثالثاً، لأنها ظلت غير قادرة بشكلٍ عام، حتى لو نجحت في فكّ ارتباطاتها القديمة مع النظام، على الخروج من أطرها التقليدية الموروثة، لتتجاوب مع ديناميكية اللحظة السورية وما تصوغه من إشكاليات عن الوجود والعدم. لذا يكرّر شيخٌ جليلٌ معتدلٌ على مسامعنا: «ينبغي أن نعلم أن ما يصيب العالم الإسلامي اليوم إنما هو من معصيته لله، ولو أنه أطاع الله لكان هو قائد الدنيا»! ومثله يقول كاهن نبيل ليختزل مأساتنا السورية في مفهوم «الخطيئة». يعبّر هذا النوع من الحجج الجاهزة عن المسافة التي تفصل الخطاب الديني السائد عن عمق الصرخة الوجودية الثائرة فينا، وما تحمله من ألم الغياب، ليبقى هذا الخطاب هزيلاً أمام أجساد الأبرياء المكوّمة، وأمام جثة محمد معلّقةً في مخيم عين الحلوة، وفي ضمائرنا حتى النفس الأخير.

«أين هو الله؟» تتكرر الصرخة اليوم، ولا إجابة تشفي، لأن إلهاً لا يقدر على الغياب لا يمكن إلا أن يكون وهماً يناقض واقعنا المحكوم بالوحدة، أو صنماً ميتاً يختزل «الإلهي» في صورتنا عنه، ومعه يُختَزَلُ توقنا اللامتناهي إلى الحرية. لذا، يتابع «الإلهي» انفلاته من سجن المفاهيم والمنظومات المغلقة التي اعتدنا مقاربته من خلالها، فيكمل نزوحه من معابدنا، من تعاليم الكثير من كهّاننا وشيوخنا، من جبب المتطرفين منا، ليسكن ربما خيمةً ما، في مخيمٍ ما، حيث يرتجف أطفالٌ صغارٌ من البرد القارس.

في فصول الذات والهوية

الربيع السوري وأشواك «الحقيقة»

«النهار» 2012/1/6

لا يقدّم هذا المقال تحليلاً سياسياً لما يجري في سورية، بل يحاول تنحية رأي صاحبه في هذا الخصوص، ليرسم قدر استطاعته ملامح شكلٍ جديدٍ للحقيقة الإنسانية قد يتفق عليها الموالي والمعارض.

يعيش الشارع السوري اليوم تأزماً عميقاً على مستوى العلاقات الاجتماعية، قد تصل في بعض الأحيان إلى درجة القطيعة بين الأصدقاء أو حتى بين أفراد العائلة الواحدة، فما إن يبتدئ «حوارٌ» بين موالٍ ومعارض حتى تنقلب الكلمات صراخاً والحجة تخويناً. في جوٍّ من تبادل التهم، يعرض الطرف الأول ما تيّسر من الأفلام التي تلتقطها أجهزة الخليوي لتصوّر همجية من ينهشون لحم «إخوانهم»، فيبسط الطرف الآخر رواياتٍ عدة عن «العصابات المسلحة»، ويصل النقاش إلى طريق مسدود.

ليست الحرب الإعلامية هنا محض تضاربٍ في وجهات النظر، أو مجرد «تواطؤ» البعض مع هذا الطرف أو ذاك، بل هي قبل كل شيء أزمة حقيقة، فخلف المحنة الاجتماعية التي نمر بها اليوم يقبع نموذجٌ معرفيّ كلاسيكي عن الحقيقة، تُقارَب فيه على أنها شكل من أشكال التطابق بين الواقع وفهمنا له، تالياً تُختصر الحقيقة إلى صحة المعلومة. المشكلة هنا متعددة الوجوه، فالمعلومة أولاً مشوّهة، لأن الإعلام الرسمي، المدافع الشرس عن النظام، يحظى بالحق الحصري في نقل «ما يجري»، وتالياً تشويهه. ثانياً،

لا تشكّل المعلومة في كثير من الأحيان غايتنا، بل محض وسيلة نستعملها لتبرير موقفٍ مسبق، أو للدفاع عن هوية إيديولوجية أو دينية تعتبر ذاتها مهدَّدة. فالموالي بشكلٍ عام، كما اعترف لي البعض، «لا يريد أن يصدّق أن في إمكان حكومته الممانِعة أن تجرم إلى هذه الدرجة»، ولا يريد من يشعر نفسه مهدَّداً أن «يتخلى عمّن يحميه»؛ في المقابل، يخوّن معارضٌ مندفعٌ كلَّ من لا يتفق معهم في وجهة النظر! في أجواءٍ كهذه، تنقلب «الحقيقة» نفياً للآخرية، والحوار صراعاً، والمختلف خائناً. تحت اسم «الحقيقة» إذاً يستتر ضدُّها: العنف لا الخطأ!

في ظل هذا الواقع، لا بدَّ لنا من تفكيك ضرورة ارتباط الحقيقة بصحة المعلومة، لكن من دون أن نتخلى عن ضرورة الحقيقة أو عن أهمية المعلومة، وإلّا تساوى القاتل والمقتول! بمعنىً آخر، لا بدَّ للمجتمع السوري اليوم، في نضاله ضد ما يمارَس في حقه من قمعٍ وقتلٍ ونهبٍ وكذب، من إنتاج نموذج وجوديٍّ عن الحقيقة يتجاوز النتائج المدمرة التي قد يتسبب بها تطبيق النموذج المعرفي على الصعيد الاجتماعي؛ نموذجٌ لا يُختزل إلى «صحة المعلومة»، بل يتأسس كطريقة حياة. بكلماتٍ أخرى: لا بدَّ لنا من إخصاب سعينا وراء المعلومة ببحثٍ عن نوعية حياة جديدة تسمح لنا بأن نكون معاً.

بما أن جلّ ما يميّز الحياة هو التخبّط، لا يمكن للحقيقة، عندما نفهمها كحالةٍ وجودية، أن تبقى نهاية مطافٍ ما، بل تصير المطاف ذاته. بمعنىً آخر تتحدد الحقيقة كبحث عن «الحقيقة»، تالياً كحالةٍ من التيه. لا نرى جيداً إلى أين نذهب، على الرغم مما نعرفه عن هوية جلادنا، لكننا نبغي النور. يتدافع المتظاهرون بحثاً عن وطن مخطوف، يتجمّع الشباب هامسين في المقهى بحثاً عن كرامة مهرقة، يتساقط الآلاف برصاص الأمن بحثاً عن حرية شريدة، ينتزع الشبّيحة حناجر صادحة ويقطعون أجساد أطفالنا. لكن وعلى الرغم من ذلك، وبغضّ النظر عن موقفي الشخصي

الذي يرى في النظام السوري نكراناً للحقيقة، لا بدَّ أن أعترف بحضور آخرين يؤمنون به ويترقبون إصلاحاً يبدو لي سراباً، لكنهم موجودون، ومن واجبي احترامهم! هؤلاء يبحثون وهؤلاء يبحثون، فأين الحقيقة؟

مع مقاربة الحقيقة كحالةٍ وجودية، تتجاوز هذه، بسبب ما تحمله من تيهٍ وضبابية، منطق التوكيد المطلق الجامد، لتصبح من جهةٍ أولى توكيداً إبداعياً قادراً على خلق نماذج جديدةٍ لا يكرر فيها السوريون الموروث البالي، ولتتجلى من جهةٍ ثانية كحالة نفيٍ ترسم لنا ما لا يمكن أن يكون حقيقياً، فنُنتج ما يمكن أن نسميه «ثقافة الخطوط الحمر»: رفض قمع أيٍّ كان، حتى ولو كان عدواً، والاحتكام إلى العدالة لا إلى الانتقام. قد يبدو الكلام «أفلاطونياً»، لكن لا مفرّ، وإلا كرهٌ، ثم قتلٌ، ثم شيءٌ باسم لا شيء. نحن باقون لكن الأنظمة أياً تكن، إلى زوال، فلا بدَّ لنا من أن نجد سبيلاً حتى نكون معاً. إن كنتُ من المعارضين، فعليَّ الاعتراف بهشاشة المعارضة على المستوى السياسي، والعمل بحسب إمكاناتي على تجاوز محدوديتها الراهنة. وإن كنتُ من الموالين، فأنا مدعوّ إلى أن أعترف على الأقل بالفساد والقمع الوحشي المتفشي في الجسد السوري منذ عقود، وبمسؤولية النظام الكاملة عن هذا الواقع، وإلا فأنا عدوّ للحقيقة. من كان من الموالين في الحقيقة لا يمكن أن يبرر إبادة المتظاهرين، ومن كان من المعارضين في الحقيقة لا يمكن أن يرمي المختلفين عنه بالبيض والطماطم في القاهرة! الحقيقة الوحيدة التي يمكن أن تجمعنا هي البحث عن وطنٍ شريف؛ بحثٌ لا إملاء، تطلّعٌ لا حنين. الحقيقة الوحيدة التي يمكن أن تجمعنا هي مساءلةٌ مستمرة للذات، بكل ما يحمله السؤال من قلق ودهشة.

لا بدَّ لنا، بغية الحفاظ على وحدة شعبنا، من بناء ثقافة حقيقة جديدة تميّز بين الموقف السياسي والقيمة الإنسانية محترمةً الخطوط الحمر، وإلا صار الإنسان فكرة. من كان في الحقيقة لا يمكن أن يعيش في وهم المطلق، بل في بساطة من يستطيع أن يرى ما في الحلم من حقيقة. من

كان في الحقيقة لا يقدّس شخصاً أو حزباً أو موروثاً بالياً. من كان في الحقيقة لا يخاف من أن يعيد حساباته فيعترف بما له وبما عليه. من كان في الحقيقة لا يمكن أن يدافع عن قاتل، وإن لم يقتنع بالمشروع البديل. من يكون في الحقيقة لا بدَّ له أن يبحث، ويتيه، ويتعثر، ويبكي، ويصبو إلى النور...

الربيع السوري وفوضى القُبلة الأولى

«السفير» 2012/2/9

«ألا تعرفون أن إسقاط الأنظمة الاستبدادية التي لا بدَّ من إنهاء حكمها، لن يؤدي إلى جنة الديموقراطية، بل إلى جحيمٍ أكثر حلكةً وظلامية؟ لا أستطيع أن أكون شاهد زور على مثل هذا المصير». على هذه الكلمات المتعجّبة من دعم المثقف للربيع العربي، في الوقت الذي يكتسح فيه نصر الإسلامويين صناديق الاقتراع، يردّ الصديق عقل العويط بكلماتٍ أخرى: «أفضّل أن أكون «شاهد زور» للثورات، على أن أكون شاهد زور يقبل بالاستبداد».

هذا لسان مريدي الربيع في «انحيازهم الضروري إليه»[1]، وهذه هي جدلية حالهم: من جهةٍ أولى، يقوم هذا الانحياز على رفض طغيان السلطة الحاكمة، لكي يعلن، من جهةٍ أخرى، استعداده للانفتاح على مستقبلٍ قريبٍ قد يتّسم هو الآخر بظلامية استبدادية، إسلاموية أو عسكرية، فينقلب «شاهدة زور»! تالياً، تُضعف فكرة الانحياز من موضوعية مريدي الربيع، فيتجلّى مبدأً ذاتياً عاجزاً عن إقناع الرماديين بضرورته. وبين استحالة الموضوعية ومحدوديّة الذاتية، وبين رفض استبداد الراهن ومغامرة الغد، يحيكُ الانحياز الضروري إلى الربيع ذاتَه من تشابك التناقضات الحتمية

1- أستعير التعبير هذا من مقال عبد الله أمين الحلاق «في الاستقلالية الثقافية والانحياز الضروري إلى الربيع» (النهار 2011/12/31).

التي تسم المرحلة الراهنة من عمر ثوراتنا، خصوصاً في سورية، مع كل ما يشهده «ربيعها» من فشلٍ سياسي، ومن تنامي دعوات العسكرة والجهاد التي لا تخفى أسبابها على أحد.

جملةٌ من التناقضات الحتميّة تحكم إذاً مريدي الربيع، لتسهّل لبعض المتفرجين انتقاده، منطلقين من «ضرورة عدم التناقض» القائمة على استحالة تأكيد الشيء وضده معاً: لا يمكنك أن تكون في الحقيقة إذا كنت «شاهد زور»! تالياً: مريدو الربيع هم بالضرورة واهمون فوضويون، فالربيع يتناقض مع ذاته حين يطالب بحريةٍ «ما زلنا غير أهل لها»، يقول كثيرون، ليُستبدَل بالاستبداد آخر. لهذا، نتجنب الربيع، ونتحسّر على ما مضى، ونعيش في رهاب المستقبل، ونغرق في الانتظار!

مشكلة المتفرجين هؤلاء مثاليّتُهم التي لا تؤمن بالتاريخ، ولا بإرادة من يطرحون المستبد الأول ثم الثاني ثم الثالث... مشكلتهم هي حياديتهم التي تشاهد ولا تفعل، فتزيد من تأزم الحال. نعم، تتعالى شعبية الإسلامويين في الشارع المتعطّش إلى الخلاص، نعم، أُكره البعض على إغلاق محالهم في إضراب دمشق، نعم، حدثت بعض الأعمال الانتقامية، نعم، هناك توترٌ طائفي في بعض المناطق، ولكن السكوت عما يرتكب في بابا عمرو والخالدية ليس إلا تعزيزاً لهذا كلّه!

في المقابل، لا يمكننا إنكار حالة الفوضى عند مريدي الربيع، فوضى من جُرّدوا من ماضيهم السياسي. لكن الفوضى ليست بالضرورة نزعةً عدميّة، بل يمكنها أن تكون نوعاً من تجلٍّ غير متوقع لما يسكننا في مفاجأة اللحظة. وأيُّ تجلٍّ؟ إنه تجلي رغبتنا في الحرية المنسيّة. وأيُّ لحظة؟ إنها قبل كل شيءٍ اللحظة «الدرعاويّة»، نذكرها فتحضرُ القُبلة الأولى، بوجعها وبجماليتها الدامية: خروج الأهالي للمطالبة بصِبْيةٍ مقلوعي الأظافر! هي اللحظة الأولى بفوضويتها التي فصلت بين عدمٍ وخلق: عدمٌ تشابهت فيه وجوهنا بخوفها، بسكونها، وبهمّها العربيّ الوحيد: «ماذا نأكل اليوم، وكيف

نبقى صامتين؟»؛ وخلقٌ، فيه صار فنانٌ يقول: «كأني أسمع للمرة الأولى صوتي!»، وفيه صار من يلفظ النفس الأخير يقول: «عشت حراً لساعتين، وهذا يكفي!». وبين اللحظة الأولى والنفس الأخير، صار لنا تاريخٌ، وصوتٌ، وصار لنا حلمٌ، وصار لنا اسم...

اليوم، مع انغلاق الآفاق السياسية، ها نحن أولاء مجدداً على مفترق الطرق بين العدم والخلق: عدمٌ تُعاش فيه الفوضى كحالةٍ من الغضب الأرعن، لنستسلم فيها لحاجتنا إلى الانتقام الانهزامي والتشدّد الديني، متجاوزين حدود الدفاع عن النفس؛ وإبداعٌ تُعاش فيه الفوضى كتجلٍّ مفاجئ للحرية في دهشة اللحظة، فنستعيد ولادة الرغبة الأولى بخروجها الخلّاق من رحم الاستبداد. ولأن الرغبة قائمةٌ بالضرورة على التناقض بين ما نرجوه وما نحن عليه، يمكننا أن نكون في الحقيقة، مع أننا «شهود زور»! ولأن الرغبة، في اختلافها عن الحاجة إلى التشفّي، لا تُشبع، يمكننا أن ننحاز إلى اللحظة الأولى من دون أن نكون ماضويين، فاللحظة جامحة، لا نلبث أن نقولها حتى تحتجب عنا لتمنعنا من الانحباس في الماضي، فتدفعنا إلى المستقبل حيث يتردد صداها. تكسر اللحظة الأولى إذاً سيلان الزمن الطبيعي، لأنها مجبولةٌ من رغبةٍ شاردة: هي أمامنا لا وراءنا! لهذا أيضاً، لا يمكن للأصوليين الذين يعيشون في الماضي، أو الأيديولوجيين الذين يدّعون امتلاك معاني التاريخ، أو اليائسين الذين يتحسرون على ما مضى، مصادرة اللحظة الأولى، لأنها، لا بدَّ يوماً أن تُفلت منهم، إن بقيت حيّةً في كيان مريدي الربيع.

مديح الفوضى هنا ليس إذن دعوةً عدمية، بل دعوة تأوين: جعل اللحظة الأولى حاضرةً بصدقها ومفاجأتها و«درعاويتها»، هنا والآن في واقع الشهر الحادي عشر المؤلم من ربيع سورية، وللاستلهام من بريقها في ظل تأزم الأوضاع الذي نشهده اليوم. ولكي تحضُر اللحظة الأولى في واقعنا المتأزم، لا بدَّ للمثقف أن يحمي هذه اللحظة من ثقل حركة السياسيين، ومن بطء

المؤسسات، ومن مطلقية رجال الدين، ومن شره الطائفيين، ومن حقد الانتقاميين، لكي لا تصير مدةً زمنية ابتدأت ومضت. لهذا لا بدَّ لمريدي الربيع، وأكثر من أي وقتٍ مضى، من إنتاج أشكالٍ ثقافيةٍ وصحافيّةٍ جديدة قادرة على الاستلهام من خفّة اللحظة الراقصة بين التجلي والتخفّي، بعيداً عن جمود الموروث الثقافي. لا بدَّ لمريدي الربيع من استحضار اللحظة الأولى بنقديتها للواقع الذي فيه ولدت، من أجل محاولة تجاوز ما في الربيع السوري اليوم من نكرانٍ للربيع. هكذا، لا يمكن للمثقف أن يبقى مجرد معلمٍ متفان، بل عليه أن يكون راقصاً على إيقاع اللحظة الأولى وفاءً لطبيعة الربيع، على الرغم من العاصفة المقبلة...

أضواء خافتة على ملامح القاتل

«النهار» 2012/6/30

في عبث المشاهد

في أحد أفلام الفيديو المسرّبة من ريف دمشق، على ما أذكر، نشاهد رجلاً أعزل يقف أمام جنديين مسلحين، يطلب منهما الإذن في عبور الشارع فيسمحان له. ما إن يبدأ الرجل بالركض، حتى يطلق أحدهما النار عليه من الخلف ببساطة عدمية! ببساطة، يلتفت الجندي نحو زميله ضاحكاً، وببساطة، يهنئه الآخر على الإنجاز العظيم! وببساطة أيضاً، يشتدّ المشهد عبثيّةً، ويتقرّح الجرح حين تتجرّأ الكاميرا على تصوير ملامح القاتل: شابٌ عشريني، وسيم الوجه، نحيل الجسم، لا شيطان! ببساطة، هو شخصٌ مثلنا قد يحب كرة القدم والموسيقا. ببساطة، قد تكون له حبيبةٌ يغازلها آخر النهار، وببساطة، قد يقرأ لها شعراً مسروقاً، وببساطة، قد يكون له أولاد يجلسون في حضنه، ليقصّ عليهم حكايات السندباد! ببساطة، هو رجلٌ «عاديّ» يشبهنا!

في وجه الإنسان «العادي»

تتبّعت الفيلسوفة حنة آرندت محاكمة «مهندس المحرقة»، أدولف أيخمان، الذي كان وراء الكثير من جرائم الإبادة النازية خلال الحرب العالمية الثانية، لتستخلص من مشاهداتها مفاجأةً ثقيلة: أيخمان ليس

بمجنون، ولا هو «ساديّ» أو «منحرف»، ولا يتميز عن غيره من بني وطنه، على الصعيدين النفسي والاجتماعي، بشيءٍ يُذكر! هو ببساطة مرعبة إنسانٌ «عادي»! هو ببساطة مرعبة، كما يقول، «رجل يقوم بواجبه في تنفيذ الأوامر». هو ببساطة مرعبة، رجل «عاديّ» تتجلى من خلاله «عاديّة الشر»! («أيخمان في أورشليم»، 1963). بالطبع، لا يُقصد بالعاديّة هنا تتفيه الجريمة، أو الاستخفاف بفداحة نتائجها، بل يُراد من المصطلح التعبير فلسفيّاً عن إمكان التوحّش الكامن في كل شخصٍ فينا، حين يترعرع في ظل أنظمة همجية شمولية تُخضع شعوبها، فتسحق الفرد مشوِّهةً الإنسان فيه، لتضيع «الأنا» في ضجيج «النحن». من هذا المنطلق تحديداً، يمكن للإنسان «العادي»، في سورية وفي غيرها من البلدان، أكثر من أي وقت مضى، أن يقتل من أجل القتل، لأنه فقد الكثير من فردانيته، فصار أداةً مجيّشة في يد السلطة.

في امّحاء الوجه

تَرافقَ تدمير الحياة السياسية، الذي اعتمده النظام في بلدنا، بتشويه المجتمع أخلاقياً. فعندما صارت المواطَنة خوفاً، والمواطن ببّغاء، والحياة اليومية براطيل ومحسوبيات، وعندما احتلَّ الجواسيس المدينة، صار الإنسان، كما يشير الى ذلك ياسين الحاج صالح، غير قادر على التطابق مع ذاته، «فلا يستطيع أي سوريّ أن يكون أخلاقياً في المجال العام، (بل) ينبغي أن يكون له وجهان غير متطابقين، خاصٌ يشبهه (...) وعامٌ حميد يتجنب به الأخطار»، ليردّد ما تريد السلطة منه أن يردد (النهار، «الطغيان والأخلاق في سورية الأسد»، 2011/12/3). إلّا أن التشوّه الأخلاقي بلغ ذروةً جديدة، تجاوز فيها حد الاغتراب عن الوجه الحقيقي، ليصير فيها الكثير من القتلة غير قادرين على التمييز بين الوجهين، فيحلّ العام مكان الخاص، وخطاب السلطة اللاأخلاقي بدلاً من صوت «الضمير»، وعقلية

النظام محلّ فردانية الشخص، فيغرق أناسٌ عاديون في مستنقعات القتل والمجازر، ويتباهى أناسٌ عاديون، في هتافاتهم «الوطنية» كما في «تشبيحهم» البطولي، بأنهم قتلة!

في مساحات الامّحاء

لكن هذه البنية لا تلقي بظلالها فقط على مواضع النظام، بل على مطارح مهمّة من الثورة أيضاً، فما يرشح عن تجاوزات أخلاقية يرتكبها بعض «الثوار» غير مقبول! يتباهى أحد المتطرّفين مثلاً (في قصة اشتهرت بين ثوار حمص) أمام أصحابه ببطولاته حين انتزع اعترافات شبّيح أُلقي القبض عليه: «لم يعترف، فانهلتُ عليه ضرباً، لكنه أصرّ على الصمت، فأخذتُ السكين وقطعتُ أذنه!». سواءٌ أكانت القصة التي يرويها الرجل صحيحة أم لا، يكفي التفاخر بها، أمام تصفيق المشاهدين، أن يلقي ضوءاً جديداً على وجهٍ آخر من التشوّه الأخلاقي. ليس المسيطر على الفرد هنا صوت النظام، بل حالة وحشيّة أخرى تستولي على إنسانيتنا تحت ستار «الواجب» أو «حقّ الانتقام»! بالتأكيد، لا ترسم القصة هذه حالةً عامة، فأمثلة التضامن والوعي الشعبي اللذين يقاومان التطرف أو الانحدار الأخلاقي كثيرة، لكن القصة هذه (وما شابهها من قصص) تشير أيضاً إلى إمكان أن يستحوذ علينا، أياً يكن انتماؤنا، صوتٌ «غرائزيّ» جمعي، إيديولوجي، وأحياناً ديني متشدد، ليبرّر ما لا يمكن تبريره. هنا، تشير تجاوزات بعض أطراف المعارضة أيضاً التي لا يمكن تجريدها من أسباب حدوثها (وحشية النظام في الدرجة الأولى)، ولا يمكن، في المقابل، التغاضي عنها، بل تقع على عاتقنا جميعاً مسؤولية مجابهتها، إلى إمكان الانزلاق في شموليّة «الشر» المجتمعية، وفيها يكفي عاديّةَ القتل، حتى تستشري، أن يسحق الصوت الجمعيّ، برغباته التسلطية أو الانتقامية، فردانية الوجه الشخصي، ليصير الإنسان «العادي» سلاحاً مشحوذاً قابلاً للاستعمال.

لا يمكن للفرد، ممّا سبق، أن يكون مصدراً مطلقاً لـ«الشر»، فـ«الشر» بنية اجتماعية، اقتصادية، سياسية، ثقافية، لغوية، شوّهت الإنسان في وعيه وفي تصرّفه، من دون أن يلغي ذلك مسؤوليّة الفرد الكاملة عمّا يقوم به من أعمال. هكذا، صار في إمكان الإنسان «العادي»، على ما أعتقد، أن يصير تجلياً لما يتجاوزه من بنى معقّدة جعلت من «بساطة» القتل للقتل أمراً عاديّاً. هكذا أيضاً صار لا بدَّ للثورة لاحقاً من إنتاج ثقافة مواطنة جديدة تعمل على تفكيك شيءٍ من هذه البنى، موليةً الفرد فينا ما يستحق من احترام.

في التراجيديا السورية وأقنعة الأبطال

«النهار» 2012/8/11

مأساة الممثل الذي صار دورَه

نراهم يتسابقون على الكاميرا، يدوسون الجثث بفخر، ويتبارون على احتلال مركز الصورة. نراهم يهتمون بتفاصيل إخراج المشهد، الصغير منهم قبل الكبير، فيلفّون صدورهم بأمشاط الرصاص، «يعرّمون» أمام أجهزة التصوير ويزمجرون. لكن ماذا يفعل القاتل بعد انتهاء الفيلم وعودته إلى بيته خالعاً عنه «ثياب العمل»؟ لا بدَّ أنه سيتمدد بـ«بيجامته» على الفراش، ليشاهد مع زوجته منتشياً لحظات «بطولاته» المروعة. يتأمل الرجل ذاته بفخر، فيصدّق أكثر من أي وقت مضى، أن تلك الشخصية «الملحمية» التي تتلقفها عدسة الموبايل، وهي تتكّل بـ«الخونة»، ليست إلا هو ذاته، بشخصه، بشحمه ولحمه! هكذا يتقمص الرجل الحالم على فراشه شخصيتَه «البطولية»، يتداخل فيها، يتنفسها، على نحوٍ تصير فيه مسرحة «البطولة»، أو بالأحرى «أفْلَمَتُها»، اختزالاً للشخص في الشخصية التي يلعبها، فيغرق القاتل في أقنعته التراجيدية!

البطل التراجيدي يُختزَل في قناع

ما يميّز البطل التراجيدي في المسرح الإغريقي عماه، فهو يقوم بدور البطولة، من دون أن يعرف أنه محض دميةٍ تتقاذفها أهواء «الآلهة»! في

عماه هذا تكمن براءته، وفي صلفه البطولي الذي يعميه، تكمن مسؤوليته. الشبّيح في سورية أيضاً بطلٌ تراجيدي، لأن جلَّ ما يميّزه، في غالبية الأحيان، انسياقُه الكفيف وراء مجريات الأحداث، لتتقاذفه مصالح النظام من حيث لا يدري، وتُلبسه قناعاً بطولياً. لذا، تتلخص أزمة البطل التراجيدي، الإغريقي كما السوري، في أنه يستمد هويته كلها من الدور «البطولي» الذي يلعبه، فيصير محض قناع يخفي خلفه فقراً إنسانياً وانسياقاً أعمى وراء شهوة البطولة وعبثية القتل. أزمة البطل التراجيدي إذاً هي أزمة هوية، لأن اللحظة التراجيدية ليست إلا لحظة تشوّه الوعي الفردي وتهشّم الذاكرة، يعيش فيها «البطل» حدود الآن، بجموحه الأرعن، من دون أن يكون قادراً على لملمة تاريخه وقراءة ماضيه. اللحظة التراجيدية إذاً هي لحظة غياب الوعي الذاتي الذي يميّز الكثير من قتلةٍ، كانوا ولا يزالون ضحايا نظامٍ يستميتون في الدفاع عنه. لذا، يثير فينا المشهد التراجيدي الخوفَ، على قول أرسطو، وفي الوقت عينه الشفقة! هذه حالنا تماماً إزاء أفلام القتلة: خوفٌ من توحّشهم، وشفقةٌ على عمى بصيرتهم!

في تمزقات القناع يذوب البطل ويحيا الإنسان

تتلخص تراجيديا الواقع السوري في تماهي البطل مع دوره الذي يلعبه، ليصير إنساناً مصمتاً، لا يرى، لا يسمع، لا يتكلم إلا لغة القناع. أما الضحك فيؤسس شرخاً عميقاً بين الشخص ودوره الذي يقوم به، لأن التهكم بالدور يمنع صاحبه من أن يتطابق معه، فيتغرّب الشخص عن الشخصية التي يلعبها، ليؤسّس علاقةً نقدية معها (التغريب مصطلح مستلّ من مسرح بريخت). يتحدث أسامة الحلواني ونائلة منصور في مقالهما الملهم «أشعة ضوء في نفق الحياة السورية» (النهار، 2012/7/15) عن لحظة «الخرق»: «نقلت الشبكات الاجتماعية حادثاً طريفاً في مدينة السلمية. فقد اجتمع الشبّان المحتجون في تظاهرة طيّارة صغيرة مرددين: «واحد واحد واحد،

الشعب السوري واحد». فردّ عناصر الأمن المجتمعون في الجهة المقابلة: «واحد واحد واحد، منعرفكن واحد واحد»، فيغرق الجميع، من الجهتين، في الضحك. لحظة الضحك تلك هي لحظة «خرق». هي لحظة الجنون التي ينعتق فيها المرء من أقنعته». في المقابل، «يصدّق (نوعٌ آخر من السوريين) قناعه ويأخذه على محمل الجد، فيذوب (القناع) ويتغلغل من تحت الجلد إلى الروح، لتنحسر إمكاناته التراجيدية وتنحصر في دور الشبّيح، فلا يعود قادراً على خلع القناع، فيستمر في القتل والتعذيب والاغتصاب». تُلصق التراجيديا أبطالها بشخصياتهم، في الوقت الذي يُخضع فيه التهكمُ القناعَ إلى النقد، فيتحرر صاحبه من الأدوار التي يفرضها عليه الواقع السوري المرير، ليستعيد إمكاناته الخلّاقة.

في حدائق التهكّم مساحاتٌ فسيحة

كما يكسر التهكم تماهي الشخص مع دوره، يفكّ التهكم أيضاً التصاقنا بالواقع المأسوي، أو بالأحرى تماهينا معه. يعبّر الضحك عن علاقة الكائن النوعية مع واقعه بعيداً من العادية. فالضحك تعبيرٌ عن أمرٍ غير مألوف يُخرجنا من إيقاع الحياة الروتينية، ليضعنا وجهاً لوجه أمام غرابة ما يجري. في هذا المعنى، يصير الضحك مفردةً أساسية من مفردات الحقيقة، لأنه يعرّي لا منطقية الحاضر الذي نعيش فيه، فيرسم لا معقوليته بدرجاتها القصوى ويسخر منها. أقول هذا وأتذكر بكثيرٍ من الحنين كيف كنا نجتمع خفيةً، حين كنا تلامذةً في المدرسة ومن بعدها في الجامعة، لكي نتبادل النكت السياسية ونغرق في الضحك! كانت النكتة وسيلتنا الوحيدة لنقول مأساة واقعنا المقهور وغرابته، ولنتمرد على «أبدية» نظام الأسد وأحادية حزبه، على نحوٍ صارت فيه النكتة ضرورةً إنسانية نتحدى بها الكبت الذي يُفرَض علينا. لذا لا يمكن للضحك أن يكون محض تسلية وترفيه عن النفس، بل هو قبل كلّ شيء موقفٌ وجوديّ من العالم

العبثي الذي فيه نوجد! على عكس التراجيديا التي تعبّر عن توحّد الإنسان مع واقعه المأسوي، يعبّر التهكم عن اتساع المسافة التي تفصل الذات عن موضوعها، لتصير النكتة تعبيراً عن تحرّر الإنسان من سطوة واقعه المهيمن عليه. في هذا المعنى، يصير التهكم حالة مقاومة، لأنه يخلق مساحةً لغويةً جديدة يمكن للتعددية فيها أن توجد، كما يمكن للفرد فيها أن يقاوم تماهيه مع دوره الذي يلعبه، ومع واقعه الأسود.

في فصول الموت الطويلة

منمنمات سورية

«النهار» 2012/2/21

علاء رشيدي ـ نبراس شحيّد

الساروت، حارس فريق الموتى

لا يختلف الإعلامان: المؤيد والثائر، فقط في رؤية مستقبل سورية، بل في موقف كلٍ منهما من الموت. يدخل تلفزيون «الدنيا» مع رجال الأمن لينفوا خبر المجزرة، مجزرة «مصنع السكّر»، لينفوا الموت! على العكس، يفتح عبد الباسط الساروت المرمى في لعبة الأحياء، ويصبح مشيّعاً للموتى!

ها هو ذا الأخ الميت في صورة: جثةٌ هامدة في ليل الطريق أو في برّاد المستشفى. لكن كيف نصوّر الموت؟

ـ *يرفض القانون مرافعة المحامي عن أخيه، ويعتقد الناس جزافاً أن سبب المنع هو نقاء الحقيقة. لكن لا! إنها العاطفة، فالطبيب يُمنع من تخييط جرح أخيه* ـ

أمام الكاميرا، هناك «حارس مرمى» سيفتح شباك الكرامة، ويهجر المدن حيث تستمر الألعاب. على الكاميرا أن تصوّره. يكسر حصار المدن المنكوبة، ويهتف في تشييع منشد بابا عمرو، محمد خالد الشيخ. حتى اللاخوف من الموت، عليه أن يظهر في الكادر. يقترب الميت المزيّن بالزهور، المحجّب الشعر، يدور ويدور، التشييع تحوّل طقساً، ومن حول

الجثة أعلام، وجموع تهتف. الساروت يقترب ببطء، وبقبلة على شفة الميت، يهدم تاريخ الخوف البشري من الموت. قبلة رفيق غناء، لا قبلة جنسية لمحبوبة، ولا قبلة هدف في مونديال، بل حب الصداقة، ويرحل الشهيد.

لكن، حين يقترب الحارس من الجثة ليقبّلها، كيف نصوّر الموت؟ في تشييع فيديو 2011/12/04 ترتجّ الكاميرا للحظة، حين تقترب من وجه الميّت محمد خالد الشيخ، الصورة تهتز! لِمَ؟ المصوِّر أخو المشيَّع! والساروت يبخّ الجثة حرارة القبلة. إنها اللقطة الأخيرة للأخ محبوباً.. حياً.

ـ ستراف سورية المستقبل بأبنائها أكثر، ستصل الرأفة إلى المادة 120 من الدستور: «يُمنع الأخ من تصوير أخيه، وإلا فإن الواقع سيهتزّ، ويندسّ الموتى في حياة الأحياء، ينشدون الحرية!» ـ

غياث، إنهم يخافون الورود!

رسموا وردةً على شعار الإضراب! هي وردة الطبشور ذاتها التي رسمها طفلٌ من درعا على الحائط قبل أن يموت. أراد أن يقاوم بالورود! أطلقوا النار على الطفل، احمرّت الأرض، وبقيت الوردة بيضاء على الأسمنت المتّسخ.

ها هم أولاء الآن يعيدون رسمها على جدران السجون. هي الوردة ذاتها التي حملها غياث مطر إلى جنود الحواجز... سقى الجلادَ ماءً قبل أن يُقتل، فعطش الجلاد وارتوت الوردة!

غياث! غياث، اعذرنا، فنحن نعيش في بلدٍ يُذبَح فيه عشّاق الورود، وتُبقَر بطونهم، وتُسرَق أعضاؤهم، وتُقتلَع حناجرهم.

غياث، غياث، اعذرنا! اعذرنا غياث: النظام في بلدنا يخاف الورود، فلا يهزمُ البندقيةَ إلا زهرةٌ شربت من دموع العين، يحملها من يشبه مسيحاً حافياً.

القاتل يا غياث لا يموت بالرصاص، فمن فتات جثته ينبعث قاتلٌ آخر، ومن نشوة المقهور قد يترعرع جلادٌ جديد. كأن شاعراً حزيناً رآك في حلمه حين قال عن حاله، عنا وعنك: «...كلهم كانوا يصيحون: أمسكوا القاتل/ أمسكوا القاتل/ وفعلاً، بعد أن أمسكوني/ عرّوني من ثياب خوفي/ فوجدوا تحت قميصي وردةً/ لأجل ذلك ذبحت»! (نزيه أبو عفش).

ذبحوك يا غياث لكن، بقيت الوردة...

ـ ستُرأف سورية المستقبل بأبنائها أكثر، ستصل الرأفة إلى المادة 121 من الدستور: «يُمنَع المواطن من إهداء الورود، وإلا ستُطلق المدافع قذائف حب!» ـ

زينة، ارسمي لنا وردة!

أمسكوا زينة شهلا منذ بضعة أيام لأن في يدها رغيفاً وحفنة من السكّر. قالوا لها «معك سلاح ومخدّرات!» نبشوا البيت، قلبوا الأسرّة، أخذوا جهاز الحاسوب، ثم خيّروها بين مهنتين: المُخبرة أو المُعتَقلة!

معتقلةٌ أنت إذاً يا زينة، لأنك «سلفيّة» والصليب الصغير يلفّ عنقك! مكبّلةٌ أنت يا زينة، لأنك «إرهابيّة»، فيدك تحمل الطحين لتطعم من صاروا بلا مأوى! حبيسةٌ أنت يا زينة، لأن الاعتقال صار مهنة، صار جنسيّة، صار وطناً!

هناك حيث يتكوّم الآلاف داخل السجون، أمام الجدار المتسخ. هناك أمام الجدار الذي كتب عليه من مرّوا قبلك أسماءهم. هناك رحلوا، وبقيت خربشاتهم. هناك، لا أعرف إن كان بحوزتك طبشور لترسمي لنا وردة!

ـ ستُرأف سورية المستقبل بأبنائها أكثر، ستصل الرأفة إلى المادة 122 من الدستور: «يُمنع المواطن من اقتناء الطباشير، وإلا ستتفتح السجون، لتنشد القضبان نشيد السلميّة!» ـ

زينة، تخطرين دائماً على البال، أكثر من أي وقتٍ مضى! قلتِ لي يوماً قبل أن أترك دمشق: «سأستمر في مداعبة الحرية!». نحن أيضاً يا زينة نستمر اليوم في الجلوس وراء النوافذ، في طقوس الانتظار، لنستقبل استمرارك الغامض، وهذه الابتسامة المخضّبة التي تجري في العروق حيث اللاخوف يظهر في الكادر.

أتمنى أن تكوني بخير. الجميع يسلّم عليكِ، الأهل، الأصدقاء، الجيران، حتى عتبة الباب يا زينة تسلّم عليكِ.

من مذود بيت لحم إلى أطفال الحولة

«السفير» 2012/5/29

في قديم الزمان

كان يا ما كان، تقول الحكاية، طفلٌ غريبٌ، لا مكان ليولد فيه إلا المذود. كان يا ما كان، تقول الحكاية، هناك في بيت لحم أو حمص، واسمه يسوع، عيسى! كان يا ما كان، تقول الحكاية، مجوسٌ جاؤوا إلى القدس، عن الملك الصغير يسألون. كان يا ما كان، تقول الحكاية، ملكٌ اسمه هيرودُس، أراد قتل الوليد. لهذا، تقول الحكاية، هيرودُس طلب من المجوس أن يعودوا إليه بعد الزيارة، علّهم يخبرون عن مكان الصغير. إلا أن المجوس عادوا من طريقٍ آخر، تقول الحكاية، فما كان من هيرودُس إلا أن قتل أطفال بيت لحم، من أبناء سنتين فما دون! كان يا ما كان، تقول الحكاية، هيرودس مات وقبله مئاتٌ من الأطفال، وبعده ألوفٌ مؤلّفة. كان يا ما كان، لم تنتهِ الحكاية، فهيرودس مات لتجيء بعده أنظمةٌ أشدّ دموية، تمتدُّ من بيت لحم إلى الحولة!

في جديد الزمان

هيرودس مات ليولد جزّارون جدد، يقتلون صبياً من الجيزة يحمل زاداً لأهل درعا المحاصرين، واسمه حمزة. واليوم، بعد مرور عامٍ كاملٍ على ذكرى تسلّم جثمانه (5/25)، تتكرّر الحكاية، ليعيد النظام السوري

مجازره، فيذبح أطفال الحولة. لقد مات حمزة، وماتت عفاف وآخرون، والأنظمة «الهيرودية» باقية، ليمتد صراخ الأولاد من بيت لحم إلى حمص: «ذبحوا اليوم أطفال الحولة وبالأمس أطفال العدوية. هل سيكون دوري هو القادم؟»، يتساءل طفلٌ يحمل لافتة، ويتساءل معه كثيرون: هل شكّل طفلُ المذود خطراً على ملكٍ عظيمٍ كهيرودُس؟

في ما ورائيات القتل

شيئان لا تستطيع الأنظمة القاتلة تحمّلهما: الموت والولادة. ففي حين تُخضع الأنظمة المستبدة شعوبَها، مستعملة سياط الترهيب، يُفلت الموت كما الولادة من سطوتها. الموت يعكس عجز الإنسان عن تجاوز محدودية وجوده، فهو، مهما عَظُم وصنع لذاته أصناماً، لا بدَّ زائل! أما الولادة، فتشير إلى أن الحياة تجيء دائماً بجديدٍ، فتبقى، على الرغم من ظلام السجون، متمرّدة. لهذا، يشكلُ كلٌّ من الموت والولادة تحدياً ما ورائياً، تنكسر أمامه أنظمة الاستبداد، فيصير القتلُ تعويضاً عن الهزيمة، ويغرق المستبدون في حطام مراياهم. لهذا، لا يذبح القاتل الأطفال لينتقم ممن يهدّدُهُ، بل لينتقم قبل كل شيءٍ من الحياة نفسها، لأنه لا يقدر على إخضاعها. من بيت لحم إذاً، يتّخذ الملك ندَّه: طفلٌ وليدٌ فقيرٌ لم يحمل سيفاً! في الحولة أيضاً، بيت لحم الجديدة، يُسقط القتلةُ بُغضَهم للحياة على أطفالنا.

حوار

تقول الولادة: «إن الإنسان، وإن كان مائتاً، له جديدُ الحياةِ قبل أن يموت». يقول الموت: «لكن الحياة هشّةٌ، وفي هشاشتها يكمن عذابها»، لتجيب الولادة: «وفي هشاشتها أيضاً يستترُ شيءٌ من بريقها ومِلحِ طعمها، حتى لو كان التاريخ حاقداً». فيقطع القتلُ الحوار ليقول: «إن الحياة عطيةٌ مسمومة، والموت شهوة، وقاتل الأطفال إلهٌ، وقاتلُ أطفال من قتلوا أطفالَه

إلهٌ آخر!». فتعّقب الحياة: «لكن العطية فيضُ حبٍ وجسد، وأرحام النساء في الحولة، كما في بيت لحم، لن تتوقف يوماً عن الرغبة في الحياة». كان يا مكان، حتى وإن لم تنتهِ الحكاية، ستولد حكاياتٌ جديدة...

حوارات عن الموت مع باسل شحادة شهيداً

«النهار» 2012/6/6

الحوار الأخير

على عجالة، كتبت خاطرةً فاشلةً عن الموت، من أجل أطفال الحولة المذبوحين. لكن شيئاً ما، آخر غير الفشل، كان يمنعني من إرسالها إلى النشر. لم أستطع أن أحدّد ملامح العائق هذا، فالوقت لم يكن في صالحي، ودم الشهداء لا يزال رطباً، على الأرض سائح، ولا بدَّ من القيام بشيء ما، ولو تافه! وبينما كنت أحاول فهم ما يدور في داخلي من اضطراب غامض، خطر على بالي اسم باسل، مع أنني لا أرسل إليه عادةً خربشاتي قبل أن أنشرها. شيءٌ غريب كان يدفعني إلى أخذ رأيه في هذه الخاطرة. بالمصادفة، كان موجوداً على «السكايب» وقتئذ، وبالمصادفة، كان هذا قبل استشهاده بيومٍ واحد، وبالمصادفة، اكتشفتُ أنه من قام بتصوير الطفل الذي ذكرتُه في الخاطرة، ويحمل لافتةً كُتب عليها: «ذبحوا اليوم أطفال الحولة وفي الأمس أطفال العدوية. هل يكون دوري هو القادم؟!». أكان اسم المصادفة هذه أيضاً حدس الموت؟! لا أعرف! كل ما أذكره من تلك الحالة الغريبة، أن باسل أحب كثيراً خاتمة الخاطرة الفاشلة، وفيها تتحاور الولادة مع الموت، لينتهي الحوار على النحو الآتي: «أرحام النساء في الحولة، كما في بيت لحم، لن تتوقف يوماً عن الرغبة في الحياة. كان يا ما كان، حتى وإن لم تنتهِ الحكاية، ستولد حكاياتٌ جديدة» (السفير 2012/5/29). أحب باسل هذه

الخاتمة، وأراد أن يرسمها «غرافيتي» على أحد جدران حمص. لذا، طلب مني أن أنشر المقال بأسرع وقت ممكن لأرسله إليه. اليوم يا باسل نُشر المقال! أتعرف متى؟ بالمصادفة، في الصباح الذي تلا استشهادك! نُشر المقال اليوم يا باسل، لكنني لم أعد قادراً على إرساله إليك... اعذرني!

الخاتمة المبتورة

أرسل إليّ باسل أحد الأفلام التي صوّرها في حمص أيام عيد الميلاد، لكنه لم يُرد أن يعرضه. أراد أن ندردش فقط. كان الفيلم رائعاً، لكن خاتمته كانت غريبة، لأن فيها نوعاً من البتر القاسي. يعرض الفيلم واقع المدينة أيام العيد، أما الخاتمة فشيءٌ آخر: باسل مع أصدقائه يحاولون عبور الشارع من أجل الذهاب إلى حي «الستين»! قبل عبور الشارع، يشرح له أحد أصدقائه الطريقة: «سنركض! سوف تغامر متكلاً على الله. وإن شاء الله، لن يصيبك مكروه، وإن شاء الله، سيُعمى على قلوب القناصة فلا يرونك، وإن شاء الله، سنستطيع أن ننتشلك إن قُتلت!». لم أفهم خاتمة العبور الغريبة، فشرح لي: «لا أعرف. شعرت أنها مهمة بالنسبة إليّ. هي في الحقيقة خارج سياق الفيلم كله. كان عبور الشارع تجربة في قمة الفظاعة. لم أستطع إلّا أن أضعها في الفيلم وكفى!»، هذه كانت خاتمة الفيلم التي لم يستطع باسل أن يقاوم سحرها، وهذه كانت خاتمة حكايته. أرادَ فقط أن يعبر الطريق! فقط! أراد فقط أن يكون في الـ«هناك»، فقُتل لأن حكايته كانت محاولة اجتياز! واليوم، هو هناك على الضفة الأخرى، وأنا هنا أُعيد خاتمة الفيلم الحزين المبتورة، ثم أعيدها وأعيد. أهي نفسها خاتمة الخاطرة الفاشلة التي أحببتها يا باسل؟! لا أعرف! وداعاً صديقي. الجميع يسلّم عليك هنا، حتى عظام الموتى تهدي إليك القُبل.

في ذاكرة الأسماء

عندما أخبرني باسل أنه قرر العمل في حمص، قلت له: «سأضع

مشاعري جانباً، لأسألك سؤالاً لا بدَّ أن يسأله الصديق». «ما هو؟»، قال لي باهتمام، فأجبت: «إذا حصل لك مكروه، فهل تريد أن أقول لأحدٍ ما أمراً، كنت تتمنى أن تقوله له، لكنك لم تستطع». لم يجب باسل إلا بعد دقائق من الصمت: «لا!». لكنني في الحقيقة، لم أكن أتوقع هذا الجواب، فأعدت عليه السؤال، ليعيد لي الجواب نفسه، ويضيف: «لا نريد مناحاتٍ!»، وضحك. سألته: «باسل، هل تحب الموت؟»، فقال باستخفاف: «الموت مريح، خصوصاً للكسالى، وأنا أحب الكسل أحياناً!». أجبت: «لا أصدّقك»، فضحك وقال: «أرسل إليّ ما ستكتبه عن الموت»، وأضاف: «غداً صباحاً صلٌّ من أجلي، فالحياة فيها كثيرٌ من المفاجآت». في اليوم التالي، اتصل بي باسل ليقول: «كذبت عليك البارحة. يوجد أحدٌ أودّ لو أستطيع إخباره أمراً ما». «من هو؟»، سألته بشغفٍ ممزوجٍ بشيء لا أعرفه، ليجيب: «أودّ قول أمر ما لأحدهم، لكنه يجب عليّ عدم فعل ذلك!». «حسناً»، عقّبتُ لأضيف: «تستطيع أن تقوله لي، ولن أخبر أحداً». «لا لن أقول لك»، أجابني باسل. فوعدته قائلاً: «لا تقلق باسل، لن أخبر أحداً»، فأجاب على نحوٍ غامض: «خلّصِت!». «تقصد الأزمة؟»، قلت محاولاً تلطيف الجو، فضحك ولم يجبني. هكذا بقي الاسم غريباً، ودُفنتَ أنتَ في حمص غريباً، وأحببتَ النهايات الغريبة، وبقيتْ لنا خاتمة الحكاية غامضة. نمْ إذاً بهدوءٍ يا صديقي، واحلم لنا بوطن تعمّد من غربتك، ومن حكاياتك التي لم تعرف النهايات، فنحن هنا لم نعد قادرين على النوم. وداعاً باسل! سلّم على الأهل هناك.

في حكايات الموت وتحوّلات الجثة

«النهار» 2012/6/16

بين الأحياء والموتى خبزٌ وملح!

كنت أخاف كثيراً من جثث الماضي، وما زلت أتذكر كيف بللتُ سروالي طفلاً حين التقيتُ الجسد البارد. كان جدّي بجانبي والجسد الممدّد كان جدّتي. لكن، هل كانت جسدَها أم كان لها جسدُها، ثم غاب؟ لا أعرف! كان المشهد عابثاً، وجدّي يحاول أن يحبس شهقته، لتُفلتَ منه دمعةٌ لم تعد المقلتان تتسعان لها. ومع إيقاع القطرات المنسلّة من عينيه، استطعت الاقتراب من الشيء الأصفر، لكنني لم أنجح في تقبيله إلّا حين تذكرت أن له اسماً: أمُّ رائد، جدّتي!

اليوم، بعد عشرين عاماً، أترك الكتابة ومقالات السياسة، لأعود إلى عالم الجثث، بعدما اجتاح العسكر المدينة، فهدموا المنازل ليغيّبوا الموتى عن حكاياتهم. تتراكم الجثث مع تراكم الأيام، ويتكوّم المتظاهرون في الساحات وسماواتها: «يا الله ما إلنا غيرك يا الله...». هكذا، ابتدأت حكاية أنسنة الجثث!

للجثة المرمية جسد الحكاية

جلبتُ إلى الدار جثّةً من دون اسم: امرأة عجوز قتلها الجنود وخلّفوها بلا هوية. بكتها فاطمة، زوجتي، عندما شاهدَتها منحورة الرقبة، ثم هدأتْ

لتطيل النظر في جثة المرأة، كأنها مرآةٌ ضاعت في تجاعيد وجهها. أما أنا فقد ابتلعني الصمت، لينسدل اللحن من ثوب سكوني الممزق مختنقاً، شيئاً كالحنين: «أيتها النفس المطمئنة...»!

لم تنمْ فاطمة تلك الليلة، فقد أطالت النظر في المرأة ـ المرآة، حتّى أوشكت أن تتشرّب العجوزَ في جسدها. أما أنا، فأسلمتُ رأسي للوسادة، لأشاهد زوجتي، بين غفوتين، تسدل رأسها على كتف المرأة المجهولة، كأنها نبيّة تقيم ميتاً.

«ما اسمها يا عديّ؟»، قالت فاطمة في الصباح بلهفة، فأجبت ساخراً: «وما أدراني يا امرأة!». لكنني ابتلعت ريقي كمن يبتلع حجراً، وتملّكني الهلع، فقد رأيتُ العجوزَ الليلة الماضية في حلمي تنظر إليّ وتبتسمُ بموت. «سمِّني!»، قالت العجوز في المنام. «سمّني يا بنيَّ كي أسكن الموت فلا أبقى شريدة!». وبينما أنا تائهٌ في استذكار مفاصل الحلم، التفتتْ إليّ زوجتي لتقول لي: «فلنسمِّ العجوزَ فاطمة!». لم أُرد الاسم هذا، لكنني لم أستطع المقاومة، فهززت برأسي موافقاً، لترقد فاطمة العجوز في مقبرة الاسم قبل أن ندفنها في «حديقة الموتى».

الموت أسماء وأشلاء

أعاد العسكر اجتياح المدينة، وعدت إلى لملمة الأسماء والأشلاء. جلبتُ يومذاك ميتاً من دون هوية: رجلٌ بشاربين كثيفين، وعيناه لا تزالان مفتوحتين. جثةٌ تنظر إليّ، وفي سواد المقلتين ذكرى أخيرة. وضوح الملامح يقول ما لا يمكن قوله، فتسودني الحيرة: إلامَ كان ينظر قبل أن يُقتل؟ لا أعرف، ويجتاحني الشعور بالعجز. سألتُ فاطمة: «كيف يتجرأ الحي أن يغلق عيون الموتى؟»، فساد الصمت، لتقول بعد برهة: «خلّهما مفتوحتين يا عديّ، فلعلّ الميت يحمل معه آخر ما انطبع في عينيه! خلّهما

مفتوحتين ليصدق الموتى أن حبيبته كانت جميلة!». بدت لي كلمات فاطمة منطقية، فلا جواز سفر إلى عالم الموتى إلّا خيوط الحكايات وذكريات قديمة قد لا تموت! «حبيبته جميلة يحملها في شبكية عينيه»، قلت في نفسي بشغف، لتتملكني الرغبة في أن أسأل فاطمة: «وما أدراكِ أن عشيقته كانت آخر ما رآه قبل أن يموت؟»، لكنني أحجمتُ لأني أعرف أن حدس الأنثى لا يخطئ. فقلت لها: «فلنسمّه إذاً «الميت المفتوح العينين»، فأعجبها الاسم وقبّلتني، ثم أنشدت للجثة أغنية: «ذهبنا مقهورين، لا نملك إلّا بعض ترابٍ لم نعطه...».

أرادت فاطمة أن نأخذ للميت المفتوح العينين صورة، فتبقى ذكراه على الحائط معلقة، تلفّها شريطة سوداء ناعمة تقول الحداد. لكنني ترددتُ لأنني أعرف الموتى ونزقهم! يتمرد الميت على أقفاص الصورة، كما على خاتمة الحكايات التي ننسجها لنسجنه، فنرتاح ونبكي. الميت ليس صورة معلّقة ليبقى في مكان، فقد تشبّعت منه جدران المنزل، وأرصفة الطريق، وطاولة المقهى التي اتكأ عليها حياً ليلعب النرد، كما تشربته قصص الأحياء وهمومهم. لم يعد في مكانٍ بل صار المكان! فقلت لفاطمة: «دعيه حرّاً من دور صورة تؤطّره، وليبقَ سائحاً في الاسم الغريب، ولتبقَ حكايته فرضيةً بخاتمةٍ ركيكة، نلتقط منها ما تطاير من ذكريات العينين المفتوحتين». «يا لقسوة الحياة!»، أجابتني، ثم أخلدتُ إلى الفراش.

جاء دوري كي لا أنام تلك الليلة، فأضيع في تفاصيل الجثة التي بقيت مفتوحة العينين، كأنها تنظر إلى كل شيءٍ في اللاشيء. عرفتُ حينئذ أن اهتمامي بالجثث لم يكن مجرد نوعٍ من إكرام الضيوف، فالأموات صاروا من أفراد العائلة، يتناسلون، يتكاثرون... تذكرتُ ليلتئذ حكمة جدتي العجوز عن الموتى، روتها حين كنت صغيراً: «عندما تغني لميتٍ بشجن، في ليلةٍ مقمرة، منتصف الليل، سيستفيق يوماً لتأخذ أنت مكانه!»

الجثة التي بقيت من دون اسم

جلبنا جثّةً من تحت أنقاض بناءٍ تهدم. كانت جثّةً محايدة إلى حدّ العدم. لا بسمة على الشفاه ولا تجهّم، ولا عينان مفتوحتان تسرّبان شيئاً من الماضي. جثّة مصمتة بلا حكاية! كيف نسمّيها كي لا تضيع في النسيان، وماذا نكتب على الشاهدة؟ تجادلتُ كثيراً مع فاطمة، وعلت أصواتنا، لكننا لم نصل إلى اسم، فقلت: «فلنضع لها رقماً إذاً ونكتب: «هنا يرقد الميت عشرون!». لكن زوجتي رفضت أن تبقى الجثة بلا اسمٍ خوفاً من أن تتوحّش، أو تصير ذئباً، فالجثث، كما تقول فاطمة، «تعوي إن أنت لم تكلّمها!». لذا قررتْ فاطمة تسميتها: «الجثة التي بقيت من دون اسم»! «ما هذا الاسم الغريب؟»، قلت في نفسي، لأستدرك: «هو اسمٌ ينحت حقيقة الموتى: غرباء ستبقون في عالمنا ومع ذلك أقرباء! لهذا، سنختلق لكم حكايات وأسماء كي تستمر الحياة».

للجثث فلسفاتها!

عندما تعمّد اسم الجثّة باللااسم، انهمرت دموع فاطمة، وخرجتْ تلعن السياسة وبطش الحياة. أما أنا فعدت إلى شجن الغناء، مستذكراً كلماتها قبل أن تغيب: «الموت ولادةُ الحكايات، وعهدٌ بين الجثث والأحياء!».

حدّقتُ مجدداً في الجثة العارية أمامي وقد هممتُ بغسلها. الميت الآن يعطي كل شيءٍ في حيادية الموت المطلقة. أقلّبه يمنةً فيستدير معي، ويسرةً فلا يقاومني. لا عورة تخجله، ولا شيء يخفيه عني، لكنه على الرغم من ذلك يخفي كل شيء!

الميت يعطي ذاته مستسلماً، ليوكّلنا حياكة حكايته، فلا يصير اللاشيء. وهو، وإن بقي مجهول الاسم، له اسمٌ يقول غربته: «الجثة التي بقيت من دون اسم»!

عادتْ زوجتي إلى الدار لترشّ بعضاً من ورد الرمّان على صدر الميت.

هو الآن في البيت جثة، واسمٌ نختلقه كي لا يستوحش فيتوحّش. لكنه في مخيّلة فاطمة حكايةٌ أخرى، روتها لي حين أغمضتْ عينيها: «أراه هناك واقفاً قرب زوجته، من النافذة يترقب بحذر، ليشاهد دخول العسكر الحيَّ قبل أن تخترق الطلقة جسده...».

هكذا هلك الميت، وهكذا حمّلناه قبلةً يطبعها على جبهة أمه، ووردة، هناك في العالم الأبيض. هكذا، أعطيناه اسماً كي تختلط جثّته بجسد الكلمات، فيقول لزملائه الموتى: «هناك في حمص، اعتنوا بي وألبسوني حكايةً وكفناً، لكنهم لم يتملّكوا الاسم!».

الاسم الذي بقي من دون جثة

قتل العسكر فاطمة وسرقوا جثّتها لتضيع. لم يبقَ منها إلّا قطعة من شالٍ أسود، أفلتت من همجيتهم، واسم. بكيتُها طويلاً، وبكيتُ معها الحكايات والأسماء التي طاشت، وتسلَّلتْ طويلاً من بين الانفعالات أغنيتُها عن الموتى: «يا أحبابي عودوا حتى لو كنتم قد متّم!». أخبرني الجيران يومذاك كيف ماتت مبتسمةً حين أطلقوا عليها النار، وهي عائدةٌ إلى المنزل. ماتت من دون قبلة أودّعها بها، أو أستودعها إياها للأحباب هناك، ماتت من دون جنازة، لتتمرّد على الطقوس!

في سكرات الحزن، وبين جموع المعزّين، شاهدتُ، على ما أذكر، رجلاً له وجهٌ كوجه «الجثة التي بقيت من دون اسم». ربما جاء ليشكر فاطمة على الاسم والحكاية، أو جاء ليستقبلها بحياديته المطلقة في عالم الموتى. بدا لي واقفاً من بعيد يلوّح بيده، وعيناه مسمّرتان على الطاولة التي عليها تمدّد جثةٌ قبل أن يُدفن.

في تلك الليلة المقمرة، ظهرتْ لي فاطمة في حلمي مبتسمةً، والتجاعيد بدت على وجهها الجميل، وكانت تناديني...

ملاحظة أخيرة

هذه كانت أشلاء حكاية عديّ، لملمها أصدقاؤه من مذكرات قاومت النسيان. استشهد عديّ في 25 أيار المنصرم، وهو يحاول إنقاذ طفلٍ، لتبكيه أسماءٌ من ماتوا قبل أن يندبه الأحياء![2]

2- يندرج هذا التأمل في مشروعٍ أدبي ـ فلسفي مشترك مع علاء رشيدي، للخوض في إشكالية حكايات الموت. في السياق هذا، نشر علاء «حكاية فريق الموتى» في جريدة «سوريتنا»، العدد الرابع والثلاثون، 2012/5/13.

إلى قايين السوري

«النهار» 2012/7/14

في حكايات البداية

أمام حالة التوحّش المستشرية اليوم في سورية، وأمام تفشي القتل والتلذّذ بالتعذيب، يفرض «الشر» ذاته علينا سؤالاً، معضلةً لا نستطيع حلّها، وفي الوقت عينه لا يمكننا تجاهلها. من أجل هذا، حاولتُ في مقال سابقٍ أن أسلط ضوءاً خافتاً على بعض ملامح القاتل، من خلال مقاربة البنية الاجتماعية، السياسية، الثقافية التي تحتضنه، ليتجلّى «الشر»، بعضه، حالةً مجتمعيةً تُحكم بنظامٍ ديكتاتوري شمولي، يعمل على تدمير الوعي الفردي للإنسان فينا، فيصير القتل للقتل أمراً «عادياً» (ملحق النهار، «أضواء خافتة على ملامح القاتل»، 2012/6/30). أعود اليوم إلى إشكالية «الشر» ذاتها، لكن لأطرحها من زاوية جديدة تحاول الغوص، هذه المرة، في رغبة القتل الدفينة في الإنسان. لكي أجد إلى ذلك سبيلاً، سأتناول بشكل سريع حكايات «التكوين» بحسب «الكتب المقدسة»، لأن حكايات «البداية» تقول، من خلال رموزها وسرديتها، الكثير ممّا لا يستطيع الخطاب «العادي» قوله، حين تحاول أن ترجعنا إلى لحظة الصفر الهاربة، فتضيء شيئاً من عتمة «الأصول». من المنظور هذا، لا يقدّم المقال هنا قراءةً دينية لـ«النص المقدس»، بل فلسفية بسيطة قد يتفق على بعضها المتديّن وغير المتديّن.

في العودة إلى رحم القتل

تحاول حكاية القتل الأولى، الواردة في القرآن الكريم، كما في الكتاب المقدس، أن تعود بنا إلى رحم القتل، لترسم الرغبة المتأصلة في الإنسان في إلغاء الآخر، فتحدد لنا شكلاً جديداً من آليات «الشر» العاملة فينا: غيرة «أوّل» أخٍ من أخيه، قايين من هابيل! تروي الحكاية كيف نظر «الله» إلى قربان هابيل بعين الرضا، من دون أن ينظر إلى قربان أخيه. تقلب نظرة «الله» هذه، على الرغم من غموض دوافعها، موازين القوى السائدة في الحكاية، لأنها تقلب نظرة الأم التفضيلية: «وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين، وقالت اقتنيت رجلاً من عند الرب، ثم عادت فولدت أخاه هابيل». حواء اقتنت رجلاً وتهلّلت عندما ولدت قايين الكبير، في حين غابت كلماتها مع ولادة الصغير. قايين إذاً مُلكٌ لأمٍّ اقتنته، أما هابيل فبعيدٌ عنها، مغيّبٌ في لغتها، وله اسمٌ يرسم حالته في الوجود: «هابيل»، ويعني البخار! هو إذاً من دون كثافة وجودية، بل مجرد دخانٍ عابرٍ لا يهمّ أحداً! هنا تدخل نظرة «الله» في الحكاية لتقلب الموازين، وتجعل من بخار الشخص شخصاً، فيستفيق الوحش في قايين، لأن هابيل الذي لم يكن له من الوجود إلّا الهباء، صار إنساناً له قيمة، لهذا صار خصماً!

في العودة إلى رحم الأم

عندما أُحيط هابيل بنظرة، فصار شخصاً مستقلاً لا شبحاً أو دخاناً، لم يعد في وسع قايين الكبير أن يكون مطلقاً في الوجود، كما كان في عيني أمه، ومن أجل هذا قَتَل من انتزع منه مطلقيته! المقصود بالمطلق هنا حالةٌ من التضخّم الذاتي، يتموضع فيها شخصٌ ما في مركز العالم، محتلاً المساحة كلها، فلا يُبقي مكاناً لآخر، لأنه لا يقبل الحدود. لكن هذه الحاجة إلى المطلق التي دفعت قايين إلى قتل أخيه، كانت هي نفسها حاجةَ أمّه حين أكلت من ثمر «الشجرة الممنوعة»، التي لم تكن إلا شجرة «التألّه»

الذاتي (النص التوراتي) أو شجرة «الخلود» (النص القرآني)! تحيلنا رمزية الشجرة المحرّمة، كما يشير بعض الفلاسفة، كـ بول ريكور، إلى غيرة الإنسان من «الله»، ورغبته المتأصلة في أن يصير إلهاً مطلقاً، يؤلّه ذاته نافياً كيان الآخر («رمزية الشر»، 1960). هكذا، تنسج حكايات التكوين ذاتها من صنّارة الغيرة، فـ«إبليس» يغار من آدم، والإنسان من «الله»، والأخ من أخيه، لأنهم يرغبون جميعاً أن يصيروا كلاً في كل! بهذه الطريقة فهمَت حكايات «البداية» أصل القتل الأول، وعلى هذا النحو رسمت لنا شيئاً من ماهيته، ليتجلّى وجهٌ أساسيّ من وجوه «الشر» فينا: الانسياق وراء الحاجة إلى المطلق، على نحوٍ لا يعترف بكيان الآخر، فيبرّر قتله منذ «قديم الزمان» وصولاً إلى حاضرنا السوري، حيث يفرض النظام الحاكم ذاته كمطلقٍ منافٍ لمبدأ الآخرية (إلى الأبد أو نحرق البلد!).

في مطلقية الألم

لا يجتمع النصان، التوراتي والقرآني، فقط على مقاربة القتل الأول انطلاقاً من الحاجة إلى المطلق، بل على مقاومة الحاجة إلى الانتقام من القاتل أيضاً: «لئن بسطت يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدي لأقتلك»، يقول النص القرآني على لسان الأخ لأخيه؛ أما النص التوراتي فيقول: «جعل الرب لقايين علامةً لكي لا يقتله كل من وجده»! ترسم الحاجة إلى الانتقام هنا شكلاً آخر من أشكال الحاجة إلى المطلق، فعندما تستولي علينا الحاجة الانتقامية، لا الرغبة في العدالة، يتمحور الإنسان ألمه، فلا يرى إلّاهُ، ليصير الألم كلاً في كل. هنا، تُختزل الحياة في الحاجة إلى رد الصاع صاعين على نحوٍ يُفقد الإنسان حريته، مستسلماً إلى شعور المرارة وإلى غيرة «المقتول» من قاتلٍ لا يزال حيّاً! من غيرة القاتل من المقتول إذاً، إلى غيرة «المقتول» من القاتل، مروراً بغيرة الإنسان من «الله»، ترسم حكايات «البداية» حاجتنا إلى المطلق، وترى فيها محركاً أساسياً من محركات القتل المجاني، تالياً، وجهاً رئيسياً من وجوه «الشر».

رسالة إلى قايين السوري

«قايين، أنا أخوك هابيل الذي تقتله! هابيل الذي أحرقت محلّه في إدلب، ونهشت جثّته في دوما، واغتصبته في درعا، وأطلقت عليه النار في حمص، وقتلت أطفاله في الحولة، واعتقلته من أمام البرلمان لأنه قال لك: «أوقفوا القتل»! نعم، هابيل الذي كان هباءً، صار له صوتٌ واسمٌ وكيان! تصوّر يا قايين، هابيل اليوم يتظاهر لأنه يريد أن يكون حراً، تصوّر بعد صمت السنين! لي إخوةٌ قتلتَهم أنت أيضاً، وهم الآن يريدون الانتقام منك، يريدون أن يصيروا قايين مثلك، أمّا أنا فلا. استيقظتُ من موتي لأذكّركَ فقط بأنك لن تستطيع أن تستأصلني من تربتي! قبل أن تطلق النار عليّ، كنتَ تستطيع أن تحصرني في المكان، هناك في الشارع أتظاهر حاملاً جهاز التصوير، أو متسكعاً في أحلامي. نعم، كنتُ سابقاً هناك في مكانٍ ما، أما اليوم فأنا في كل مكان. لقد صرت المكان، صرت الوطن، لا لأرعبك، بل لأقول لك إني ما زلت موجوداً، هنا باقياً. المُخلِص هابيل».

مشاهد مفكّكة في شهوة الموت

«النهار» 2012/7/29

«الفتاة والموت» لوحتان وشهوتان

الموت، كيف نصوّره؟ وأي ريشة تنفع لإظهار قسماته؟ حاول الكثير من الفنانين رسمه، وشخصنه البعض شبحاً مخيفاً، كما فعلت ماريان شتوكس في لوحتها الشهيرة «الفتاة والموت». نشاهد الموت هنا أنثى مرعبة تبسط جناحها الأيسر مستوليةً على فضاء اللوحة، في الوقت الذي يستعدّ فيه الجناح الآخر للإطباق على فتاةٍ بعمر الورد تلفظ النفس الأخير. تتكدس البنت اليافعة على ذاتها وقد استولى عليها الرعب، فنرى أصابعها وقد تشنّجت في يأس اللحظة الأخيرة، لتتشبث بالآن الهارب رغبةً في الحياة، لتقاوم الموت، أو ربما لتنكره!

لكن، كما صوّر الكثير من الفنانين الرعب من الموت، تجرّأ قلّة منهم على تصوير شهوة الرحيل، ففي أحد رسوم «الفتاة والموت» لإدوارد مونخ، نرى فتاةً عاريةً وقد أطبقت على الموت، عشيقها، لتلفّه بجسدها الغض في خدر القبلة الأخيرة. يتداخل الجسدان في مشهدٍ يخلو من الألوان، وقد تعرّى من ديكور الخلفيات الفنية، وتجرّد من تنويعات الأشكال، ليقول شيئاً واحداً يصعب قوله: إنه الموت مُشتَهىً محبوباً! لكن كيف يمكن الموت، منبع قلقنا، أن يصير فاتناً مرغوباً، وكيف يمكن عشق الحياة أن يمتزج بشهوة الرحيل؟! هذا سؤالٌ يربط خواطر تتبعثر هنا من دون أن تصير

مقالاً، لتظل مشاهد مفكّكة تقول إن السؤال الواحد يبقى من دون إجابةٍ واحدة.

ماريان شتوكس، «الفتاة والموت»، 1900

إدوار مونش، «الفتاة والموت»، 1894

باسل شحادة أيقونة حية أو حكاية قد يشتهي الموتَ من يرويها

من دون ريشٍ ولا ألوان، يرسم السوريون الحياة، كما الموت، بأجسادٍ متناثرة، تُبقي لأيقوناتهم بعد الرحيل بريقاً غريباً، كذاك الوميض الذي تركه غياب الصديق باسل شحادة. استشهد باسل، فكان لموته وقعٌ غريب، عبّر عنه، كما لم يعبّر عنه أحدٌ من قبل، تعليقٌ كُتب على إحدى صوره: «هالزلمة مات...» (هذا الرجل مات...)! لاسم الإشارة «هذا» صدىً أخّاذ، فتراكمُ الجثث كاد أن ينسينا أن لكل شهيدٍ حكاية، وأن أرقام الموتى التي تتداولها وسائل الإعلام قد تغرقنا في نسيان من قضوا. لكن، كما كان لانبثاق حكاية باسل وقعٌ غريب أعاد للموتى بريقاً مؤنّسِناً، كان لسحر حكايته شهوةٌ أخرى: الكثير ممّن عرفوه صاروا يتمنون الموت تماهياً معه! «نيّالك!»، صرنا نقول بوجع، «إن شاء الله عقبال عندي!»، بتنا نردد بشغف، لينكشف شيءٌ من الحسرة التي تسكننا: «لم أَغَرْ من أحدٍ مثلما غرت منك يا باسل»، أو من مرارة الشعور بالذنب: «لقد استشهدتَ، أما أنا فما زلتُ حياً»، قال أحد الأصدقاء مناجياً الشهيد أمامي بألم! مع انصباغ الألم هذا بلون الإثم، ومع كثافة المشاعر التي تجتاحنا في واقعٍ يسوده الموت، تصير الحياة ثقيلة، لأننا قد نودّ أن نردّ للموتى ما بقي لنا من حياةٍ عرفاناً بالجميل، كأن استشهادهم صار دَيْناً لا عطيةً نحيا بها وفيها. هكذا، صرنا ننسج حكايات موتنا أحياءً، نتخيّلها في سرّنا، نصوغها، نكرّرها، نشتهيها. لكن هل يمكن للحيّ أن يتصوّر موته؟

الدور المستحيل في الحكاية المتخيّلة

نتخيّل موتنا، أحياناً. نريد أن نكون شهداء، أحياناً. نتصوّر كيف يحملنا الأصدقاء على الأكتاف أحياناً، وكيف تزغرد النساء لنا، وكيف تبكي العشيقة عشيقها، أو العشيق عشيقته، وكيف يستقبلنا «الملائكة» في «الجنة» إن كنا مؤمنين. لكن كيف يستطيع الإنسان أن يتصوّر موته؟! محمّلاً

على خشبة؟ ممدّداً على سجّاد الجامع، أو نازفاً على الأرض؟!! أيّاً يكن، فالغريب في الأمر أن الميت يقوم بالدورين في الآن عينه، فهو المُشاهِد والمُشاهَد! نشاهد نحن أنفسنا شهداء، فنفشل في تصوّر موتنا، ويبقى موتنا غريباً عنا، مُنكَراً في أعماقنا، مادةً خاماً لا يمكن معالجتها! هذا ما قاله مؤسس التحليل النفسي، سيغموند فرويد، منذ مئة عام على طريقته: «تؤكد مدرسة التحليل النفسي أن الإنسان لا يعتقد بموته الشخصي، أو أنه، بمعنىً آخر، مقتنعٌ في لا وعيه بأنه لا يمكنه أن يموت»! («أفكار لأزمنة الحرب والموت»، 1915).

حوارٌ صامت حول التابوت

كتب الصديق العزيز عامر مطر في مقاله عن الشهيد باسل شحادة: «وَصَلَت الريحُ إلى كل الشوارع السوريّة، وسرقت أصدقاء كثراً، آخرهم باسل، حتى تمنّيت لو أنني متّ قبلهم في ساحة ما، في زنزانة ما، خير من العيش بذاكرة تحولت مقبرة جماعيّة!» («باسل شحادة.. كاميرا حتى الموت»، الحياة 12/6/6). أمام قسوة الحياة، وانقلاب الذاكرة مثوىً للأموات، تقول كلمات عامر مطر بصدقٍ كيف يمكن أن يصير الموت خلاصاً يريح من بقي على قيد الحياة من ألم الخواطر، من ذكريات الذين رحلوا، من بشاعة الحال، ومن وجع الضمير. تحيا كلمات عامر مطر الصادقة فينا، في وقتٍ تخطّ فيه إحدى صديقات باسل ألمها على صفحته «الفايسبوك» بعد استشهاده، لتصير كلماتها وصية: «لمين تركت البلد لمين؟ لمين تركت الطرقات المهجورة؟ الله يسامحك قطعتلنا قلبنا»! حكمة الأنثى هنا لا بدَّ مصيرية: لقد مات الشهيد لنحيا ما استطعنا، لا لنموت! فلنفكر ألف مرة حين نشتهي الشهادة أو نحلم بالبطولة، أو حين نضحّي بأنفسنا أسخياء من أجل أمرٍ قد لا يكون دوماً مصيرياً، في وقتٍ قد تكون فيه المحافظة على حياتنا، مع كل صعوباتها، أكثر فائدةً لمستقبل بلدنا! نحن لا نقدّس

الموت، تقول الوصية، بل نحب الحياة ونستقبل الشهادة إن هي أتت! حكمة الأنثى هنا لا بدَّ مصيرية: لقد مات الشهيد وأوصانا بأن نحافظ على الحياة ما استطعنا، فالبلد أمانةٌ في أعناقنا، والموت قد خطف الكثير من زهور البستان!

لكن أبواب الحديقة لا تزال مفتوحة، ولا يزال في البستان وردٌ كثير.

عن البقلاوة المسمومة وهذيان الانتقام

«النهار» 2013/8/31

في كرنفالات الموت

بعد مجزرة الكيميائي المريعة التي طالت الغوطة الشرقية، جابت بعضَ شوارع دمشق فرقٌ من الفاشيين للاحتفال بـ«النصر الكبير». أفرغت بعض صفحات التواصل الاجتماعي ما في جعبها من أحقاد مقيتة، هلّلت للنصر على «الإرهابيين»، ودعت «القيادة الحكيمة» إلى إعادة الكرّة. عُلِّقت مكبّرات الصوت في مناطق متفرقة، وأقدم بعض الموالين للنظام السوري على توزيع الحلوى، للاحتفال بمقتل ما يزيد على ألف إنسان.

المشهد هذا تكرر سابقاً لكن بشكلٍ معاكس، حين أعلنت مجموعةٌ تطلق على نفسها اسم «سرايا عائشة أم المؤمنين» مسؤوليتها عن التفجير الإرهابي الذي هزّ الرويس في ضاحية بيروت الجنوبية. لم تكتفِ هذه المجموعة، المشكوك في هويتها، بتبنّي التفجير، بل وعدتنا أيضاً بالمزيد من الدماء ردّاً على تدخل «حزب الله» الإجرامي في سورية. لكن، حتى وإن بقيت حقيقة هذه المجموعة غامضةً إلى ساعة كتابة هذه السطور، تناقلت صفحات التواصل الاجتماعي أيضاً صوراً لأشخاصٍ قاموا بفعلٍ شنيعٍ لا يقل في بشاعته عن جريمة التفجير: لبنانيون وسوريون في مناطق متفرقة يهللون لمقتل العشرات من مدنيي الضاحية الجنوبية. وزّع المحتفلون الحلوى ابتهاجاً بالموت، مستنسخين بذلك أفعالاً «أقدم عليها فتيةٌ في

الضاحية الجنوبية عندما اغتيل جبران تويني، وعندما سقطت مدينة القصير» (حازم الأمين، «الحلوى البشعة»، 2013/7/11).

في انحلال الهوية

احتفال «شبّيحة النظام» بمقتل أكثر من ألف إنسان، واحتفال «شبّيحة الثورة» بمقتل مدنيين أبرياء (بحجة «ضرب معاقل النظام» أو ما شابهها من حجج بائسة) متشابهان في حقدهما، وإن اختلفا من حيث الإطار والعدد والخلفيات التي وراءهما. تحتفل كرنفالات الموت هذه بدماء مدنيين لا علاقة لهم بما يجري، لأن هؤلاء الضحايا صاروا محض امتدادٍ متوهَّم للعدوّ الحقيقي الذي لا يستطيع المنتقِمُ النيلَ منه. تستبدل ذهنية الانتقام هويةَ العدو بأحد امتداداته الطائفية أو المناطقية، ليصير كل إنسانٍ متأصلٍ في المنطقة الفلانية عدوّاً، أو كل شخصٍ ينتمي إلى طائفة معينة خصماً يستحق الموت. في هذه الحال، يتجلى الفعل الانتقامي في جوهره تدميراً لمفهوم الفرد ككيان مستقل مسؤول عن أفعاله وأقواله. يترافق هذا الضياع الذي يصيب هويةَ من ننتقمُ منه، بضياع هوية المنتقِم نفسه، لأن جلَّ ما يميّز الاحتفال الانتقامي تلاشي «الأنا» في غوغائية الجماعة المحتفِلة. في كرنفالات الموت هذه ـ كما في حالات الاغتصاب الجماعي التي عرفها ميدان التحرير ـ تذوب «الأنا» في حالةٍ جماعية بدائية لتفقد فردانيتها، فتصير جزءاً غير قابل للتمايز عن «نحن» هستيري يستولي عليها.

مع هذا الانحلال الذي يصيب هوية المنتقِم، كما يصيب هوية العدوّ، يصير الفعل الانتقامي قادراً على تبرير كل عملٍ مهما يكن شنيعاً. الكل يعرف أن الأطفال الذين قضوا في مجزرة الغوطة مثلاً لا يمكن أن يشكّلوا أيّ خطر على من احتفل بمقتلهم. لكن هذا الأمر لا يعني المنتقِم، لأنه لا يرى في هؤلاء الأطفال إلا امتداداً لعدوّه. لذا، لا يتناسب حجم التدمير الذي يحلم به الفعل الانتقامي مع حجم الخطر الموضوعي الذي يشكّله

الآخر المقتول. لذا أيضاً، يتجلى الفعل الانتقامي في جوهره فعلاً قائماً على الوهم.

في أوهام الانتقام

ككل فعلٍ انتقامي، يهدف فعل توزيع الحلوى إلى استعادة شيء ضائع. لكن، ما هي حقيقة هذا «الشيء»؟ من المؤكد أن عملية توزيع البقلاوة لن تعيد إلينا صديقاً أو قريباً فقدناه بسبب همجية بعض المجرمين الذين صاروا جزءاً من نسيج الثورة، كما أنها لن تحيي عشرات الألوف من الشهداء الذين قُتلوا على يد النظام السوري المدعوم بميليشيات «حزب الله» ومن لفَّ لفيفهما. لذا، لا يمكن لطبيعة الشيء الذي يسعى فعل الانتقام إلى استعادته، أن تكون موضوعية، لأن ما رحل قد رحل! تعرّف الفيلسوفة سيمون فايل فعل الانتقام كنوع من استعادة توازنٍ ما، أخلَّ به عدوّنا. قد يسمي البعض هذا التوازن المفقود بـ«الكرامة المهدورة» أو «الشرف المباح» الذي لا يستعاد إلا بالدم. لكن يبقى السؤال هنا مؤرقاً لا ينطفئ: أيّ شرف هذا الذي لا يمكنه أن يؤسس ذاته إلا على تشوّه إنسانيتنا حين نحتفل بموت أطفال صغار وتشظّي أجسادهم؟ يمكننا إعادة صوغ السؤال ربما بطريقة تعجبية أخرى: كم هي بائسة هذه الذات التي لا تستعيد ثقتها بنفسها إلا حين تغرق في العدمية؟!

لا تقوم الاستعادة التي تؤسس الفعل الانتقامي على استرجاع شيء موضوعي فقدناه، بل على إفقاد الآخر/ العدوّ أمراً عزيزاً عليه. التوازن المرجوّ إذاً هو توازن قائم على الإخلال بتوازن الآخر. لذا، لا يمكن للتوازن المنشود أن يكون استرجاعاً أو تصحيحاً لما تمَّ إفساده، بل هو إغراقٌ في التدمير والعدم: «عليّ وعلى أعدائي!».

بنية العمل الانتقامي إذاً قائمة بشكلٍ أساسيّ على الوهم. من جهة أولى، لن يعيد الانتقام ما فقدناه، لذا يصير التوازن الذي يسعى الفعل

الانتقامي إلى استعادته وهماً مؤسَّساً على لا توازن العدو. من جهةٍ ثانية، لا يطول الفعل الانتقامي، المتمثَّل في توزيع الحلوى، القاتلَ الحقيقي، بل امتداداً متوهماً له يقوم على اعتبارات طائفية ومناطقية، ليشمل أولاد العدوّ أو أقرباءه أو جيرانه أو أيّ شيء نتخيّله عنه. من جهةٍ ثالثة، يقوم الفعل الانتقامي على انحلال الهوية الشخصية في جماعية بدائية لا مكان لفردٍ مستقل فيها، فتغرق الذات في هذيان الجماعة المريضة.

في هذا الهذيان الجماعي، ستستمر الأيادي في تناقل البقلاوة المسمومة إلى أن يجيء يومٌ يكون فيه للحداد الحقيقي مكانٌ يخرجنا من لذة أوهام الانتقام. ليس الحداد في جوهره إلا معركةً ضد الوهم وقبولاً بالخسارة كي تستمر الحياة ولو بصعوبة، أو تعايشاً مع واقع أليم، قد يفتح نافذةً صغيرة في جدار أسود. «يوم الغد»، قالت لي صديقة حزينة، «سيكون أجمل!».

في فصول المقدّس والاستبداد

السادة الأساقفة! على مذابحنا بقعٌ من دم

«السفير» 2011/8/5

«نادت الكنيسة بحق كل إنسانٍ في الحرية والكرامة، وحثت الجميع على النضال المستنير من أجل هذا الهدف النبيل، وطلبت من رجال الدين دعم هذا الواجب، ولكن من دون الانخراط المباشر في العمل السياسي الميداني، مما يؤهلهم لأن يكونوا مرجعاً للجميع». هذا ما تعودنا على قوله، لكن أين نحن من هذا الكلام في سورية؟

مِن كهنتنا من هو بعثي، ومِن أساقفتنا من لا يتردد في تخوين كل المتظاهرين، ومِن بطاركتنا من لا يكفّ عن كيل المدائح للنظام، في الوقت الذي لا يجرؤ فيه كاهنٌ على غسل جراح ماضينا، أو أسقفٌ على الوقوف في وجه أجهزة الأمن ليكرر وصية من لا يموت: «لا تقتل!». هكذا، وبدلاً من أن يكون يوم الثالث والعشرين من حزيران المنصرم يوم صومٍ وصلاة، كما ورد في بيان أساقفة دمشق، تحول تجمع المؤمنين في كنيسة الصليب الدمشقية إلى مهرجانٍ خطابيٍ مؤيدٍ للنظام، وازدادت الدمعة بريقاً.

لا يُسأل الشعب بل يتكلم بعض أساقفته عوضاً عنه ليقولوا: «هو لونٌ واحدٌ هذا الذي لا ينفكّ يردد «نعم نعم...»». أما الحرية فليست إلا «مؤامرةً» و«عصابات»، وكأن أناساً لم يوجدوا يوماً ليخرجوا من دون أن يعودوا، وتصدح أصوات من يحملون أشلاءهم «سلمية سلمية»، فيكرر الواعظ «مندسّون مندسّون». يدخل الجيش المدن، وتتعالى هتافات

الشارع، وتغرق الكنيسة في صمتها: «نعم نعم...»، وتبرق الدمعة من جديد. أما مستقبل الحراك فليس إلا «إماراتٍ سلفية»، وكأن لا مسيحيين ولا علمانيين يخرجون كل جمعةٍ من المساجد، وكأن لا مناضلين مدنيين يُخطفون من ديارهم، وكأننا لم نكن جيراناً، وكأن لا ماضيَ مشتركاً لنا، وكأن لا خبز ولا ملح ولا قهوة بيننا. من أفواه بعض خطبائنا يطلق رصاص الكلمات، ومن حناجرهم تصدح عبارات المديح والولاء لتُخرس ما لا يمكن إخراسه: حنجرة إبراهيم قاشوش. من جسد المسيح على الهياكل ينزف حمزة وهاجر، ومن جنب ذلك الناصري تمتزج حماة بدير الزور، ويردد الواعظ من جديد: «مندسّون مندسّون»!

عوضاً عن قيام الكنيسة الرسمية بتأكيد أولوية القيم الإنسانية، وبدلاً من أن تترك لمؤمنيها حرية خياراتهم السياسية بحسب صوت ضمائرهم، وبدلاً من أن توصي المسؤولين بوقف القمع، والمتظاهرين بضبط النفس، كي لا تنجرف البلاد إلى مزيدٍ من المآسي، وبدلاً من أن تطرح تأجّج الشارع السوري في إطاره التاريخي، حيث استفحل الفساد وصودرت الحريات لعقودٍ مديدة، يتبنى بعض رجال الكنيسة في سورية موقفاً سياسياً مؤيداً للنظام القائم، وتُعزف الموسيقا، وتُزجّ الشبيبة في احتفالات ساحة الأمويين عوضاً عن الحداد على أرواح من سقطوا. هكذا، يزداد الجرح عمقاً، فيتردد صوت قادمٌ من بعيد: «أعطوا لله ما لله ولقيصر ما لقيصر»! ولكن الواعظ يردد من جديد: «مندسّون مندسّون!»، وكأن شيئاً لم يكن...

اعذروا، سادتي وأساقفتي، أشجان راهبٍ صغيرٍ مثلي لا يفقه في الحياة إلا القليل، واعذروا أصوات من رفض من أبنائكم انحياز العديد من رجال الدين، فللبلاد العربية ربيعٌ يهلّ يوماً، وللكنيسة سيكون نوّارها...

المقدّس والاستبداد: رؤيا يوحنا

«السفير» 2011/9/16

بين حينٍ وآخر، تختزل علاقة الدين المسيحي بالسلطة إلى حالةٍ من الرضوخ، وبرّر البعض ذلك استناداً إلى قراءةٍ إيديولوجيةٍ مغلوطة لما ورد في رسالة القديس بولس إلى أهل روما: «على كل إنسانٍ أن يخضع لأصحاب السلطة، فلا سلطة إلا من الله، والسلطة القائمة هو الذي أقامها» (رؤ 13، 1). هذا التعليم لا يمكن أن يتحوّل إلى عقيدة، فبولس في الرسالة ذاتها يطالب المؤمنين بمسالمة الجميع «إن أمكن» (رؤ 12، 18)، أي ضمن حدود المقبول. أضف إلى ذلك أن الرسالة إلى أهل روما لم تكتب في زمن اضطهادٍ ممنهج (شتاء عام 57-58 م)، مما يفسر تجنب الكاتب الخوض في موضوع مقاومة السلطة عندما تفسد.

في الوقت ذاته، يعرّي الكتاب المقدس السلطة حين تبطل، فيرفض الإنسان الخنوع لها. على سبيل المثال لا الحصر، يعرض لنا سفر الرؤيا في فصله 13 تحليلاً معمّقاً للبنى «التوتاليتارية» (الشمولية) التي قد تبنى عليها سلطاتٌ كهذه.

الشر كفكرةٍ مجردة، ورمزه التنّين، تجسّد قبل كل شيء، بحسب سفر الرؤيا، في وحشين. يحيلنا الأول إلى روما، عندما تحوّلت قوتها إلى عنفوانٍ وحشيٍّ سافر تجلى في انحراف السلطة من الخدمة إلى التسلط، فسحقت الأحرار (رؤ 13، 7) وأجبرت البشر «بكبريائها» على السجود

أمام عروشها متغنين بفرادتها المزيفة: «من مثل الوحش؟ ومن يقدر أن يحاربه؟» (رؤ 13، 4). يحاول هذا التساؤل طمس التعجب الذي يحمله اسم ميخائيل، ويعني «من مثل الله؟» (الفصل 12)؛ وتالياً، يقوم هذا الوحش على بنىً إيديولوجية وعسكرية تسمح له بتنصيب نفسه مع التنين على عرش المطلق. أما الوحش الثاني، فيمثّل القوة النبوية الكاذبة المدافعة عن طغيان الأول، مجسداً بذلك كل المنظومة الإعلامية التي يستعملها هذا لترسيخ سلطته، جاذباً الأغلبية من خلال إيهامها برعايته وتشويه وعيها العام، فها نحن أولاء نرى كيف صنع الثاني «معجزاتٍ عظيمةً»، أو بالأحرى ما يشبهها، «وخدع بها سكان الأرض» (رؤ 13، 14). هو إذن صورة الحَمَل بصوت تنّين (رؤ 13، 11)! لكن هذا التضليل المعلوماتي القائم على تمجيد السلطة لا يمكن أن يتم إلا من خلال منظومةٍ أمنيةٍ قمعية تبيد «جميع الذين لا يسجدون لصورة الوحش» (رؤ 13، 15). ليس هذا فحسب، بل يمثّل الوحش الثاني أيضاً الطاحونة الاقتصادية التي تسحق كل من لا يدخل في منظومة فساده بحيث «لا يقدر أحدٌ أن يشتري ويبيع إلا إذا كان عليه سمةٌ باسم الوحش أو بعدد أسمائه» (رؤ 13، 17). بمعنىً آخر، يؤسس الوحش الثاني سلطة الوحش الأول من خلال المؤسسات الأمنية والإعلامية والاقتصادية محتكراً الموارد كلها، وآمراً «سكان الأرض بأن يصنعوا صورةً (للأول)»، فيعبدوها، ونافخاً فيها «حتى تتكلم» (رؤ 13، 14-15). وبما أن الوثن لا يستطيع الكلام، تتحول لغة الوحش إلى نفيٍ للغة يتم فيه إخراس الآخر وتحطيم اختلافه، فتنقلب اللغة مونولوجاً نرجسيّاً قاتلاً تمجّد فيه السلطة ذاتها بعد أن سحقت كل ما في الأصوات الأخرى من غيرية. إذن يقوم المنطق التوتاليتاري، بحسب سفر الرؤيا، على أدلجة السلطة لتأمين التماهي مع المطلق نافياً كل صوتٍ آخر، ومسخّراً من أجل ذلك كل الموارد العسكرية والإدارية والاقتصادية والأمنية والإعلامية. باختصارٍ شديد، يقوم المنطق التوتاليتاري على تأليه فكرةٍ أو شخصٍ أو حزبٍ ما، في تماهٍ أعمى بين ماهية الإمبراطورية وشخص الإمبراطور.

هذه هي السلطة التي يرفضها الكتاب المقدس لأنها تتموضع في «مكان» من لا موضع له، أي في «مكان» المطلق الذي لا يمكن بالتعريف أن يكون بشراً. هكذا يؤلّه التنّين ذاته على أنه مُعطي الحياة، وهكذا يقدِّس الكثيرون راعيَ الموت الذي يحاول ابتلاع مولودنا الجديد (الفصل 12). وبين الموت القديم وما يمكن أن يكون حياةً جديدة، وبين عبادة التنّين ومخاض الحرية، يحيلنا سفر الرؤيا إلى أصوات ضمائرنا، في عالمٍ تمجَّد فيه الوحوش ويرفع لها البخور: «من كان له أذنان سامعتان، فليسمع!» (رؤ 13، 9).

إلى رجال الدين في سورية: هل كان نيتشه محقاً؟

«السفير» 2011/12/31

يبدو غريباً للوهلة الأولى أن يستشهد راهبٌ بملحدٍ شرسٍ كـ «نيتشه»، أمضى حياته يعارك ظلال الفكر الديني وتحوّلاته. والأغرب من ذلك أن هذا الاستشهاد يأتي في إطار الثورة السورية، ونيتشه كما هو شائع لا يؤمن بالديمقراطية، لا بل يعتبر الفعل الثوري انحطاطاً!

في حقيقة الأمر، لا يهدف هذا المقال إلى استلهام نقد نيتشه المعقد للديمقراطية، بل يكتفي بعرض شذراتٍ من نقده لرجال الدين وتأوينها، علّها توقظنا من غيبوبةٍ طال انبساطها. يتمحور نقد نيتشه لرجال الدين على موضوع الخوف: إنهم مشلولون أمام غرابة العالم، فنراهم يلصقون على غموض الواقع معانيَ، في واقع الأمر، لا معنىً لها. هم لا يستطيعون أن يروا العالم يفلت من أيديهم، فيؤوّلونه على هواهم بما يتناسب مع حاجاتهم. هذا إمامٌ، على سبيل المثال، في دمشق، يتبختر في عوالم الغيب ليؤكد لنا أن الله، عزّ وجلّ، اختار النظام السوري: أحبه ودعمه وأفاضه نعمةً علينا! يا للعجب!!! لو رآه نيتشه اليوم لقال فيه: «إنه يدّعي يقين الماورائيات للهروب من مواجهة الواقع، فيصير الدين جُبناً والتسبيح تشبيحاً». شيخنا هذا، وأمثاله كثر، لا يريد أن يحدثنا عن أسباب معاناتنا في سورية، وعن الظلم الذي ينهش عظامنا منذ عقود، بل يؤكد لنا، من جهةٍ أولى، أن عالم الغيب الإلهي يريد عبوديةً كساها شيخنا بأقمشة الوطنية، ليُحمّل، من جهةٍ

أخرى، عالم الغيب الأرضي مسؤولية مأساتنا: إنهم «العصابات المسلحة» و«الغرب البغيض»! لكن، لِمَ يقول ذلك؟ قد يقول قائلٌ إنه التقاء المصالح أو الخوف من سياط الجلاد، وهذا صحيح! لكن نيتشه يعطينا جواباً أعمق: إنه يخاف من الحرية! لِمَ؟ لأنه لا يقدر أن يكون خلّاقاً، فيفضّل قتامة الحاضر على مغامرة المستقبل وما يحمله من مجهول. ينسف رجال الدين، بخوفهم من الحرية هذا، صيرورة العالم، بحسب نيتشه، عندما يسجنون الواقع في قفص الاستقرار لتجنُّب رياح التغيير، فـ«سورية بخير» يقول كثيرون! يترسخ هذا الاستقرار الزائف، المناقض لحركية الوعي المتولدة من رحم الحياة، من خلال ادّعاء رجال الدين امتلاك مفاتيح المعاني وأسرار الخلاص، فيتحكّمون في رقاب العباد الرازحين تحت أثقال الوجود، ويبشّرونهم بآخرة سعيدة تلغي مخاطر المستقبل إن أطاعوا. هكذا يطالِب رجال الدين البشرَ عند نيتشه، وأقولها من دون أن أتبنى تعميمه، بطمر وجوههم في رمال العالم السماوي، فالله هو «حامي سورية» والمدافع عنها! «قولوا إذاً لا للواقع، لأنه يهدّدنا!»

ما معنى أن يدّعي أسقف مثلاً أن النظام القائم هو الأنسب لمسيحيي سورية، إلا تخييرنا بين الوضع الراهن والفناء؟ وما معنى أن يضرب كاهنٌ بعرض الحائط كل التقارير عن مأساة الحالة الإنسانية في سورية، ليعتبر الثورة، التي انبعثت من صراخ صبْيةٍ مسجونين في أقبية مخابرات درعا، مؤامرةً، إلا دعوتنا إلى إنكار الواقع والتاريخ؟ «صدّقوهم» يقولون؛ «صدّقوا الإعلام الذي اتهم حمزة الخطيب بنّية اغتصاب النساء، وقلَب مظاهرة الميدان الدمشقية أفراحاً شعبية بهطول المطر، والأحداث المؤسفة في قرية البيضا هجوماً للبشمركة في شمال العراق، واستخدم الكومبارسية نفسهم في أكثر من مقابلة مزوّرة، وعرض أفلاماً مصوّرة في لبنان ليقول إنها في سورية»، واللائحة تطول. «صدّقوهم، صدّقوهم! فالحرية دسيسة، والحياة مكيدة، والخنوع للحاضر المدمر جنة يقال فيها: «عيشوا عبيداً

حتى تكونوا!»، هذا ما يقوله رجال الدين عند نيتشه، وهذا ما يقوله كثيرٌ من رجال الدين في سورية.

نقد نيتشه القاسي هذا لا يمكن أن يعمّم، ففي سورية أيضاً رجال دين تجرؤوا على مواجهة الواقع وتحمّلوا أعباء ذلك من ضرب وتضييقٍ وإهانات. فمن الشيخ كريم راجح إلى رهبانية إبراهيم الخليل وغيرهم، وقف رجالٌ ونساءٌ قرروا خوض مغامرة الحياة رغبةً في الحرية. لكن خوض هذه المغامرة لا يمكن أن يتوقف على فضح الظلم، بل تترتب عليه مهمتان شاقتان لا بدَّ منهما إن أردنا أن يُزهر:

أولاً، تغيير نوعية ارتباطنا بالحقيقة. يأخذ نيتشه على رجال الدين في نقده السابق ادّعاءهم امتلاك الحقيقة، فأجوبتهم جاهزة وأسئلتهم مراوِغة. إنهم لا يبحثون عن الحقيقة لأنهم لا يرغبون فيها، بل يحتاجون إلى استحواذها كي يعيشوا آمنين! هكذا، تتشوّه «الحقيقة» لتصبح مجرد تكييفٍ للعالم بما يتناسب مع مفهومنا عنه؛ ولذا، تنقلب «الحقيقة» من حياةٍ في ضيافة الواقع إلى حالةٍ دفاعية قائمة على نبذ كل شخصٍ أو فكرة يهددان استقرار عالمنا المألوف وعاداتنا. من هذا المنظار، يتحول الدين بحسب نيتشه إلى مصدرٍ للعنف، ولا يبخل التاريخ علينا بأمثلة بيّنة تحوّل فيها التديّن إلى إقصاءٍ للآخر تحت اسم المطلق. قد يعادي الدين الحياة، عندما يدّعي أنصاره امتلاك الحقيقة؛ وتالياً، لا يكتفي تأوينُ بعضٍ من نيتشه اليوم بمطالبة رجال الدين بالكفّ عن الهروب من الواقع، بل يستقضيهم بأن يكونوا دعاة واقعٍ جديد لا تتحكم فيه بارانويا الأقليات على الشعوب من جهةٍ أولى، ولا يكون فيه الدين مصدراً تشريعياً من جهةٍ أخرى، بل نهجاً إنسانياً قبل كل شيء.

ثانياً، العمل على المصالحة الوطنية. جلُّ ما يميّز روحانية العبيد عند نيتشه هو الحقد، فقلوبهم تأكلها المرارة من أسيادهم، ونفوسهم تجترّ كرهاً لا ينطفئ إلا بالانتقام. يغذّي رجال الدين، بحسب نيتشه،

هذا الحقد لأنهم يبغضون مغامرة الحياة، فمَن يبغض الحياة لا يمكن أن يحب، وإن غفر فليس إلا من باب التشفي: «أسامحك لأقول لك إنني أفضل منك! أسامحك لأنني أحقد عليك!». ما يميّز روحانية العبيد هنا هو انحباسهم في منطق رد الفعل. أشير إلى ذلك لأننا شاهدنا جميعاً كيف أفرغ بعضٌ من «أحرار» ليبيا حممهم على من أسرفوا في القتل، فأذلّوهم وقتلوهم من دون محاكمة! لا يمكن لهؤلاء أن يكونوا من مريدي الحرية، بحسب نيتشه، لأنهم ارتهنوا إلى مرارة الماضي، فأذابوا المستقبل في أنين الجراح. في سورية أيضاً نظامٌ يتاجر بأرواحنا وشبابٌ يُساق إلى العنف، وكم هو مخيفٌ أن ينقلب غضب الشارع المصلوب يوماً انتقاماً أرعن ينسف وطناً طال انتظاره. وهنا قد يبرز مجدّداً ما يمكن أن يكون دوراً منتظراً للمسؤولين الدينيين في بناء جسورٍ جديدة بين الناس قد تسمح للعدالة بأن تأخذ مجراها من دون أن تتحول إلى انتقام، شرط أن يستطيع هؤلاء المسؤولون أولاً مواجهة مخاوفهم من الواقع، ومن الحياة والحرية. لكن، هل من مجيب؟!

سورية والظاهرة الطائفية

«النهار» 2012/5/27

يكثر الكلام في هذه الأيام عن الطائفية في سورية، فيختلط الواقع بالشائعات، ليتحدث بعضهم، على سبيل المثال، عن عمليات «تطهيرٍ طائفي» طالت 90 في المئة من مسيحيي حمص (وكالة فيديس الفاتيكانية 2012/3/12). من المؤكد أن المبالغة هنا فاضحة، لكنها، على الرغم من ذلك، لا تستطيع أن تنفي تصاعد الظاهرة الطائفية في بعض المناطق. في حمص مثلاً، طَردت مجموعةٌ من «الثوار» أشخاصاً من بيوتهم، الأسبوع الفائت، مستفيدةً من انتمائهم الطائفي، ليتمّ الاستيلاء عليها. كما شهدت القصير، في الأسبوع نفسه، أعمال خطف من الروح ذاتها. لا تقتصر الطائفية هنا على بعض الأعمال الفردية التي قام بها فلان وعلتان، بل تتسلّل الحال، شيئاً فشيئاً، إلى اللغة والثقافة، ليوصِّف بعض «الثوار» «الشبّيحةَ» استناداً إلى طائفتهم، لا إلى أعمالهم. في المقابل، دفعت هذه المماهاة بين الدين والسياسة بعض الناشطين، من أبناء «الأقليات»، إلى إبراز انتماءاتهم الطائفية، كلّما تسنّى لهم ذلك، في محاولة منهم لتكذيب هذه الأطروحة، فيسود بعضَ المناطق جوٌّ ثقيل مشبعٌ بالشك. في هذا الإطار، صارت بعض صفحات «الفايسبوك»، والمناقشات التي تعقب أفلام الفيديو الخاصة بالثورة على «اليوتيوب»، مجرد مكان لتبادل الشتائم الطائفية بامتياز.

لكن وصف الحال بالطائفية هنا، ليس بالبساطة هذه، أولاً لتعذّر إجراء إحصاءات دقيقة للظاهرة المطروحة؛ ثانياً، لأن الطائفية لا تشكّل في الواقع السوري حالةً كيميائية صرفة، بل ظاهرة تختلط بظواهر أخرى، لتقدّم لنا واقعاً معقداً، صرنا نشهد فيه اقتتالاً بين «ثوار» إسلامويين وعناصر من «الجيش الحر»، تنتمي غالبيتهم إلى الطائفة السنية (راجع مثلاً تحقيق قاسم حمادي المنشور في جريدة السفير، 2012/05/12). هنا، تتشابك عوامل عدة، اجتماعية، اقتصادية، سياسية، مع المكوّن الديني، لتنسج حالةً من التشدد الطائفي والإيديولوجي العويصة، لا بدَّ من مجابهتها.

لتفشّي الطائفية أسبابٌ كثيرة، يعود أهمها إلى وحشية النظام في التعامل مع الثورة، على نحوٍ ولّد فيه عنفاً مضاداً، اتسم أحياناً بألوان طائفية، نظراً إلى تركيبة مجتمعنا السوري وعلاقته بالدين، وإلى إمكان تداخل البعد الديني فيه، بدرجات متباينة، في نسيج الهوية.

على مستوىً آخر، تضافرت سياسات النظام الإعلامية والأمنية (المباشرة منها وغير المباشرة) من أجل محاولة كسب الأقليات زارعةً الخوف بين أبنائها. هنا، يكفينا أن نتذكر كيف عمل النظام جاهداً على تشويه صورة الثورة، من خلال تقديم الحراك، منذ أسابيعه الأولى، على أنه صراعٌ طائفي، مسيّس سلفياً، في الوقت الذي كانت فيه سلمية الثورة ناصعةً، وشعارات الوحدة الوطنية، التي تغنّت بها، هدّارة. في السياق هذا، تمَّ اختلاق مجموعة من الشعارات، كشعار «العلويون إلى التابوت، والمسيحيون إلى بيروت»، الذي نُسب إلى الثوار من دون أي فيديو يوثّقه. كذلك، تمّت فبركة أفلام وأحداث عنف، وقصص، كان لها أثرٌ بعيد المدى في نفوس البعض، على الرغم من سوء إخراجها، ليستولي على الكثيرين منا قلقٌ من آخَر «مؤبلس» يسنّ سكّينه للذبح!

ترافقت الحرب الإعلامية والأمنية هذه بممارسات أخرى، ممنهجة

وعفوية، لا مجال للخوض فيها هنا، عزّزت أجواء التوتر الطائفي، كاستهداف الشبّيحة بعض أماكن العبادة، وما لازمها من تدنيس للمقدسات.

لكن النظام لا يتحمّل وحده مسؤولية ما نعيشه اليوم، فلمواقف الكثير من المؤسسات الدينية، التي استسلمت للخوف، حصّةٌ في ما يجري. هنا، لم يتردد الكثير من رجال الدين في فضح ما اعتبروه «مؤامرة»، وفي نقد الحراك الشعبي، منذ أيامه الأولى، في الوقت الذي لم يتجرأ فيه كبار المسؤولين الدينيين على إدانة وحشية النظام في التعامل مع الناشطين، التي لا تخفى على أحد، لا بل بخّروا له! في هذا الإطار، صرنا نسمع تصريحات جارحة من رجال دين، كتلك التي تعتبر النظام السوري أفضل الديموقراطيات العربية، أو كتلك التي تؤكّد اكتظاظ جامعة حلب بالمسلّحين الأجانب، على الرغم من أن شهداء الجامعة كانوا كلهم من السوريين، وأن مداخل الجامعة ومخارجها، أجمعها، تقع تحت مراقبة الأمن!

أما المعارضة السياسية، فتتحمل أيضاً مسؤولية كبيرة في الوصول إلى ما نحن عليه، بسبب ضعف برامجها واستراتيجيات عملها، وعدم إيلائها الملف الطائفي ما يستحق من أهمية. فلا برامج توعوية عن الطائفية، ولا تقارير دورية لمتابعة الموضوع، ولا شفافية في عمل «المجلس الوطني»، بل تستّرٌ على أخطائه الذاتية، بما أفقده الكثير من صدقيته، لتخسر كلمتُه وزنَها في شارعٍ متأجّج. لكن الأخطر من ذلك كله، هو ما بات يرشح عن سعي بعض أطراف المعارضة السياسية، إلى تأسيس جماعات مقاتلة، مرتبطة بها عقائدياً، ذات طابع إسلاموي تكفيري، مستفيدةً من الصراعات الإقليمية والدولية، ومن انغلاق الآفاق السياسية، ومن التجييش الديني والعاطفي. مع تنامي هذه التيارات السياسية أو العسكرية المتشددة، شهد واقع الثورة تصاعداً حاداً في مذهبة الشعارات، كما اتسمت أسماء الجُمَع بلون إسلامي قائم على الإقصاء والاستجداء المذهبي، بشكل يثير الشكوك

في آليات العمل التي يتبعها بعض الأطراف المعارضين، بما يخدم مذهَبَة الثورة.

كما ارتبط التوجّس الطائفي من الآخر الآخذ في الانتشار مع عامل جديد، هو الفلتان الأمني، الطبيعي منه والمتعمّد، بما سهّل مهمة اللصوص وقطّاع الطرق في الإفادة من الظروف الحالية، للقيام بأعمال سلب ونهب وخطف تحت مسميات عدة، أخذ بعضها اسم «المقاومة»! طُعِّم الفلتان هذا بمحدودية قدرة المعارضة العسكرية على تنظيم نفسها، لتختلط أوراق المسلحين بعضها ببعض، على نحو صار فيه من المضحك الكلام على معارضة عسكرية بصيغة المفرد!

لكن، على الرغم من هذا كله، لا تزال رقعة التوتر الطائفي محدودة نسبياً، ولا يزال عند الكثير من السوريين الوعي الكافي لمواجهة هذه الظواهر، التي تقع على عاتقنا جميعاً مسؤولية مجابهتها، كلٌّ بحسب موقعه. تالياً، لا بدَّ من تفعيل العمل الصحافي الشبابي، خارجاً عن الوصاية الصحافية للثورة، ليتسم العمل بروح الشفافية التي لا تحابي أحداً، مطلقةً على الأشياء أسماءها الحقيقية، وفاضحةً مسارات الطائفية ومهندسيها، على الرغم من سيل تهم التخوين التي قد تنهال على العاملين بها. في الإطار هذا، صار من الضروري إنشاء فرق عمل خاصة لرصد أحوال المجتمع المدني بظواهره الإيجابية والسلبية، وبما يعتريه من خروق أو تشوّهات في الوعي العام. ولكي يتكلل العمل هذا بشيء من النجاح، لا بدَّ من إرفاقه، على مستوىً آخر، إن أمكن، بمشاريع إخاء أهلي، وببرامج توعوية خاصّة بالسكان عن المواطنة، للعمل قدر الإمكان على مواجهة ظواهر العنف الديني التي لن تجلب إلا الخراب للجميع.

«المقدّس» والأصنام: خواطر في الدين والفيلم المسيء

«النهار» 2012/9/22

في مديح «الأعداء»!

قدّم المتظاهرون الغاضبون إلى منتجي الفيلم المسيء للرسول الكريم خدمةً عظيمة، حين قلبوا الفيلم البائس حدثاً مهماً تتناوله وسائل الإعلام كلها، ويشاهده الناس في أصقاع العالم، على الرغم من سخافته الشديدة! لكن الخدمة الأهم التي قدّمها المحتجّون إلى منتجي هذا الفيلم كانت، من دون شكٍ، تعزيزُ أطروحتهم الخاطئة التي تربط الدين الإسلامي النبيل أوتوماتيكياً بالعنف. للأسف، كانت الطريقة التي استنكر بها المحتجّون الإساءة إلى دينهم، بما تسبّبته من قتلٍ وبغضٍ وفوضى، طائشةً إلى حدٍّ توطّد معه الخوف من الإسلام عند البعض! إلّا أنّ الغضب الشعبي هذا لم يكتفِ بخدمة الفكر المسيء للإسلام الذي انتفض ضده، بل كان من حيث لا يدري أيضاً سنداً كبيراً للأنظمة الديكتاتورية العربية، لأنه عزز الأطروحة التي تسوّقها الأنظمة هذه عن ضرورة الديكتاتوريات للوقوف في وجه الإسلاموية السياسية المتطرفة، وخصوصاً أن الاحتجاجات، أعنفها، كانت في بساتين «الربيع العربي».

في ثقافة «العدو المتخيَّل»

كل ما ذُكر أعلاه، وإن كان مهمّاً، سيظلّ ثانوياً أمام التناقض الكبير

الذي كشفه انفجار الشارع الغاضب، عبَّرت عنه بصدق إحدى اللافتات التي رفعها ثوار عمودا: «يومياً من سورية تُعرض أفلام تسيء لله وللرسول فأين أنتم يا مسلمون؟». تقوم الدنيا ولا تقعد ضد إساءة سينمائية رديئة للمقدسات، يقدمها فيلمٌ لا يُعرف أصله وفصله، في حين لا يحرك العالم ساكناً، أو يكاد، أمام ما يجري يومياً وواقعياً من إساءة للمقدسات في سورية. «هل الرسول الذي يُهان في سورية هو نفسه الذي يهان في أمريكا؟»، تتساءل لافتةٌ أخرى بسخرية! تغصُّ الشوارع بالغاضبين، مع أن الكثير منهم لم يشاهد الفيلم المسيء قبل التظاهر، في حين رأى ويرى الجميع كيف تُداس المقدّسات يومياً، وتُهدم دور العبادة في سورية، من دون أن يكون لهذا الواقع وقعٌ عمليٌّ جماعيٌّ يذكر! التناقض فاضح، فـ«المقدّس» هو ذاته هنا وهناك، والإساءة «هنا» تتجاوز آلاف المرات الإساءة «هناك»، لكن الغضب ينفث نيرانه «هناك» لا «هنا»! تعبّر هذه الظاهرة بدايةً عن طبيعة الجرح الذي تفتحُهُ الإساءة إلى «المقدّس» في وريد الشارع: جرحٌ غير مرتبطٍ بحجم الإساءة بقدر ما هو مرتبطٌ بهوية المسيء، وإلا لكانت الشوارع قد اكتظت منذ زمنٍ بعيدٍ بالمنتفضين ضد الإساءات للمقدسات في سورية! ما يؤجج مشاعر الغاضبين هو صورة مقدساتهم في عيني «الغرب» قبل حجم الإساءة وطبيعتها! هذا لمسناه بشكلٍ جليّ من خلال التعميم الساذج الذي اكتسح الشوارع الغاضبة ناسباً الفيلم، الذي أنتجته مجموعةٌ من الأشخاص، إلى «الغرب الكافر»، فحلّل قتل سفير لأنه ينتمي إلى بلد سيعرض فيه فيلمٌ مسيء (ليبيا)، وشرّع حرق السفارة الألمانية لأن الطريق إلى الأمريكية عصيّة (السودان)! بكلماتٍ أخرى: ترتبط الإساءة قبل كل شيء، في منطق الشارع الغاضب، بالصورة التي يكوّنها الآخر الغربي عنه، لا بواقعية الإساءة وموضوعيتها، ليتكشّف شيءٌ عميقٌ من عقدة النقص المستترة التي تستولي علينا.

في متاهات «المقدَّس»

لكن، إذا كان أثر إساءة «المقدّس» مرتبطاً أولاً بهوية المسيء وبصورته عنا لا بحجم الإساءة نفسها، فهذا يعبّر من جهة ثانية عن حقيقة الثقافة السائدة في الشارع الغاضب: إنها ثقافة تهتم بمنظور الآخر عنا أكثر من اهتمامها بما نعيشه هنا على مستوى الواقع! ما يثير غضبنا هو الإهانة التي نشعر بها شخصياً حين يمس الأجنبي رؤيتنا عن «المقدّس»، في الوقت الذي يبقى فيه «العدو الحقيقي»، من ينهش لحمنا في عقر دارنا، ويسرق خبزنا، ويدمر بيوتنا، وينتهك أعراضنا، ويدوس مقدساتنا بـ«بسطاره» الأسود، ثانوياً! لذا لا ينحصر التناقض المسيطر على ثقافة الشارع الغاضب في بعده الديني (الذي يدين إساءة «المقدّس» في أمريكا ويتجاهل ما يجري في سورية)، بل يرسم قبل كل شيءٍ فصامَ الديني عن الإنساني وواقعيته، فما يثير الغضب هو الإساءة التي تطول «المقدّس» لا الظلم الذي يدوس كرامة الإنسان في سورية الجريحة، وكأن لا علاقة لـ«المقدّس» مع الإنسان! من هذا المنظور، تتحول اللافتةُ التي رُفعت في عمودا، معريّةً حقيقة العدو المتخيَّل، لافتةً إشكالية، لأنها تختزل «المقدّس» في معناه الديني المباشر، وتطالب «المسلمين» بالتدخل نصرةً لدينهم لا نصرةً للإنسان المذبوح والمتألم بغضّ النظر عن دينه: «يومياً تُعرض من سورية أفلام تسيء لله وللرسول فأين أنتم يا مسلمون؟»! هكذا تبقى اللافتة هذه، وما شابهها من لافتاتٍ ومطالب وشعارات، ملتبسة، لأنها تهتم برؤية الآخر عن «المقدّس» قبل أن تهتم بواقع الإنسان. بمعنىً آخر: حتى لو ثار الشارع العربي نصرةً للمقدسات المستباحة في سورية، فإن ذلك لن يغيّر شيئاً من جوهر المأساة، لأن الشارع لم يتحرك أولاً للدفاع عن الإنسان المظلوم!

لا تكتفي الثقافة السائدة في شوارعنا إذاً بمحاربة «عدوٍ متخيَّلٍ»، «هناك»، متجاهلةً ما يجري «هنا» في ربوعها، بل تتجلى قبل كل شيء ثقافةً منفصلةً عن كثافة الواقع ونسيجه الإنساني. ما يميّز الواقع السوري

هو ألمه، جسده المشظّى، صراخه، جوعه، عطشه، رغبته المتجسدة في الحرية، وهذا ما لا تستطيع الثقافة السائدة في الشارع الغاضب أن تأخذه في اعتباراتها، لأنها تبقى سجينة مسارات عقدة النقص ورؤية الآخر عن مقدساتنا. هي ثقافة تهتم بـ«الهناك» على حساب «الهنا»، بـ«الأبد» على حساب الزمن، بدلاً من البحث عما يمكن أن يربطهما معاً! باختصار هي نوع من غربة الإنسان عن عمق واقعه الإنساني، وعن آلامه وتطلعاته المتجسدة.

في سحر «الأصنام»

لا يكتفي شكل الغضب الذي خيّم على شوارعنا بكشف الارتباط العضوي بين جرح الكرامة الدينية من جهة أولى وهوية المسيء ورؤيته عن «المقدّس» من جهةٍ ثانية (قبل ارتباطه بحجم الإساءة نفسها أو بمعاناة الواقع والجسد)، بل يكشف أيضاً شيئاً كثيراً عن طبيعة العلاقة السائدة مع «المقدّس»: إنها علاقة عصبية قبل أن تكون روحانية! الأمثلة كثيرة، ويكفينا أن نسترجع حوادث عشناها أو سمعنا عنها، تشاجر فيها شخصان من دينين مختلفين، ليصطفّ أهل الحي (حتى لو كانوا غير ممارسين لشعائرهم الدينية) في معسكرين بحسب دين المتشاجرين لا بحسب القضية التي دار حولها الشجار. «المقدّس» الديني في هذه الثقافة هو مركّبٌ من مركّبات هوية الجماعة، ولذا يصير دفاع الشارع عن «المقدّس» دفاعاً في الوقت ذاته، وبشكلٍ متناقض، عن المحتجّين أنفسهم. التناقض هنا بيّنٌ، فالشارع الغاضب يعترف بقدرة «الله»، وفي الوقت عينه يدافع عنه وكأن «الله» يحتاج إلى محامين! هكذا، لا تكتفي ثقافة الشارع الغاضب بنسيان الـ«هنا»، وبتهميش الإنسان، من خلال التغريب الذي تغرقه فيه عن واقعه، بل نراها أيضاً تقلب «المقدّسَ»، من حيث لا تدري، صنماً! يصير «المقدّس» صنماً حين نُنَصِّبُ ذواتنا مدافعين عنه، لنحامي في حقيقة

الأمر عن أنفسنا وجراحنا، فنحمّل «المقدّس» ما نرغبه نحن ونشتهيه، ويتغرّب «المقدّس» عن جوهره ليصير وثناً.

في هذا المقام، يصير «المقدّس» صنماً حين يتحول محضَ امتدادٍ للجماعة ورغباتها في كمال صورتها أمام الآخرين. يصير «المقدّس» صنماً حين يُسجن في جمودِ فكرةٍ أو مصطلحٍ أو جماعة. يصير «المقدّس» صنماً حين يتحوّلُ اسماً للموت لا اسماً مُحييّاً، فنقتل ونخرّب باسم «اللّه»، أو ننظر بفوقية إلى الآخرين (والكلام موجه إلى الجميع، مسلمين ومسيحيين و...)، مدّعين امتلاك الحقيقة، وكأن الحقيقة شيءٌ يمكن امتلاكه لا بحثاً دؤوباً مستمراً لا ينتهي! يصير «المقدّس» صنماً حين تصير كرامته منفصلة عن كرامة الإنسان وعن معاناته هنا والآن، فيثور الشارع على فيلمٍ مسيءٍ وينسى واقع الإنسان السوري ومذلته اليومية. يصير «المقدّس» صنماً حين يُهمّش الإنسان، فينقلب الدين هرباً من كثافة الواقع والجسد! لذا سيبقى مشروع الربيع العربي ناقصاً إن لم يستطع أن يُخرج من رحمه فكراً دينياً جديداً يتجذر في نسيج الواقع الإنساني، لتصير الكرامة البشرية، في منطق المؤمنين أنفسهم، الأولويةَ الأولى، لأنها من كرامة «المقدّس» ذاته!

في فصول العشق

الحديقة بين قُبلَتين

«النهار» 2012/4/21

علاء رشيدي ـ نبراس شحيّد

حفّار القبور

لم يكترثوا لتلك اللافتة المعلّقة على السور الحديديّ، وقد أكلها الصدأ: «تُغلِق الحديقة أبوابها في السابعة والنصف مساءً». لم يكترثوا، فالطريق إلى المقبرة مستحيلة. دخلوا الحديقة ليلاً حيث جُهِّزت الحفرة من دون أن تعرف اسم الوافد الجديد. كان لأبي عمر، حفّار القبور، المتّسع من الوقت الأسبوع الماضي ليحفر مجموعةً من القبور «الاحترازيّة»، فالقبر الأبيض لليوم الأسود، يقول من بقي من سكان الخالدية.

ضوءٌ خافتٌ سلّطه الرجل على جثة الطفل المتفحّمة، وقد أُنزلت بهدوءٍ إلى الحفرة. قرؤوا الفاتحة، وابتدأ الرجال بردم الهاوية التي ابتلعت الصغير.

هكذا، تابع عُمَر لعبه في الغرفة الصغيرة وحيداً، بعد أن قبّل أخاه للمرّة الأخيرة في الحديقة ـ المقبرة، وأزيز الرصاص يملأ المكان.

ستعيد سورية المستقبل النظر في تخطيط المدن، وستكتب على الأسوار الحديد: «لن تُغلِق الحدائق أبوابها أبداً، كي لا يملّ الشهداء صمتَ الوحدة»!

الحدائق المعلّقة

كما حطمت الثورة أصنام السلطة، فكذلك حطمت السلطة حزمةً من المقدّسات: الشبّيحة يقتحمون الجوامع ليكتبوا على جدرانها شعاراتٍ لا تُقدّر بشراً أو آلهة، والكنائس قُصفت، وحرمة القبور المنبوشة تقول اللامبالاة بهيبة الموت. نادين الكردية، كتبت على حائط «الفايسبوك»: «في مرتين متتاليتين، على مقعدين خشبيين متعاقبين، داخل حديقتين مختلفتين، عثرنا على أشلاء جثثٍ في إدلب». لكن... لكن حرمة الحدائق لعشّاق الجسد، كحرمة المعابد لعشاق الروح!

لم يبقَ من أشجار الحدائق شيءٌ يذكر، فقد قطّعها من بقى من سكّان، لإشعال ما تبقّى من نار، في ما تبقى من شتاءٍ قارس. المحروقات للدبابات والأشجار لمن ينقصه الدفء، والعناكب نسجت بيوتها على حطام «الصوبيا» الفضيّة.

لكن، بعد أن صارت الحدائق عارية، لم يبقَ للعشّاق المولع بعضهم ببعض، مكانٌ مستترٌ يتبادلون فيه القبل! صحيحٌ أنّ لم يعد هناك حارسٌ بصفّارة ليفكّ التصاق الشفاه، ولكن العشّاق باتوا يتحاشون عناق الحدائق، كي لا يخلّوا بآداب الموتى!

القبلة المحرّمة

سابقاً، كان المراهقون يصوّرون الحب بسهولة: عاشقان على مقعدٍ أخضر يتبادلان القبل تحت الأغصان الكثيفة حين يخيّم الظلام. لكن الأحوال تبدّلت! كتبت هبة على حائط «الفايسبوك»: «حمص حين يُدفن الأطفال في الأماكن التي يحبونها»، لتعقّب قائلةً: «أبكتني هذه العبارة، وقتلتني الصورة». لقد بدّل المراهقون من هواياتهم اليوم، فقد تعلّموا تصوير الموت في الحديقة: المصوَّر ميت، لكنّه حيٌّ في الصورة وليس مومياء أو لفافةً قطنيةً مغبشة الملامح! الشهيد صورة أخيرة، وفي الصورة

يتمدد على تراب الحديقة، ليحتفل به الحيّ في المقبرة الجديدة، فيجبِرهُ أصدقاؤه على التذكر بأن حياة الطفولة كانت جميلة.

ستكتب سورية الغد على أبواب الحدائق: «هنا، يُطلب من العاشق تقبيل عشيقته، لكي لا ينسى الموتى رائحة الشفاه!».

القصيدة التي كانت ممنوعة

في يومٍ ما، في حديقةٍ ما، سيقطف عُمَر وردةً ما، ليقرأ لحبيبته قصيدة عشقٍ ما، كانت ممنوعةً في كتابه المدرسي القديم: «...كانت على السُلَّم/ هو إلى جانبها وهي إلى جانبه/ ... قالت له:/ ...هنا نمرض من كل شيء/ من الحرارة، من البرودة/ نتجمد، نختنق/ وليس ثمة هواء/ إذا توقفت عن تقبيلي/ فيبدو لي أنني سأموت اختناقاً/ عُمرُ كلٍّ منا خمسة عشر عاماً/ وعمرنا معا ثلاثون عاماً/ وبهذا لم نعد طفلين/ لنا من العمر ما يكفي لنعمل/ ولنا ما يكفي لنتبادل القبل/ فإن لم نفعل فسنكون قد تأخرنا كثيراً/ حياتنا هي الآن/ قبّلني»! (جاك بريفير)

هكذا، ستزهر الحديقة من جديد...

منمنمات دمشقية

«النهار» 2012/10/13

محمد العطار ـ نبراس شحيّد

دمشق وأسطورة السائح

تنسب إحدى الأساطير المنسية تأسيس مدينة دمشق إلى ديونيزيوس. إنه الإله السائح الذي قتلت غيرةُ الإلهة هيرا أمّه، فأخرجه زيوس من أحشائها وزرعه في فخذه جنيناً لينبعث منه إلى الحياة بعد ثلاثة أشهر. اضطر الصغير أن يتنكر في زي الفتيات لكي يختبئ من غيرة هيرا. بعد ذلك أُجبر على الرحيل إلى بلادٍ بعيدة، وهام على وجهه يجوب أصقاع الأرض مع نايه وشغفه وموسيقاه. لذا، وإن كان اسم الإله هذا مرتبطاً بالعيد والرقص والمسرح، فسيبقى ديونيزوس متألماً غريباً يمضي الوقت في الترحال، فيظهر حيناً ويختفي أحياناً، ليخلق عند محبّيه دهشةً ووجداً عظيماً.

روح ديونيزوس، يقول الفيلسوف نيتشه، هي «تجاوزٌ لما هو عادي في المجتمع والواقع، وهي تخطي هوّة الزوال. هي الإذعان الواجد (من الوجد) لما يجعل الحياة واحدةً على الرغم من تقلباتها، قويّةً، ساحرةً. هي الرغبة الأبدية في الولادة والخصوبة والعودة». هذه هي روح مؤسس دمشق، تقول الأسطورة المنسية: روحٌ تعيش من شغف اللحظة، وتولد من جديد. روح «المؤسس» الغريب التي تشربها المدينة هي روح الدهشة،

روح الترحال والحركة التي لا تعرف التوقف، روح المذكّر والمؤنث، وروح الصراع الدائم مع الموت. هذه روح دمشق التي لا يمكنها أن تكون دمشق إن لم تبنِ حجارتها من دهشة أبنائها على الرغم من آلامهم.

مدينةٌ حجارتها من دهشة

روح ديونيزوس عششت في دمشق متجاوزةً الحقب، لتحملها متظاهرةٌ دمشقية في لافتةٍ كتبت عليها: «ليتني متُّ ألف مرة قبل أن أرى قاسيون يقصف دمشقه»! ليس حزن الفتاة هذه إلا دهشةً ترغب في تكذيب ما ترى من دون أن تجد إلى ذلك سبيلاً! لا يصدّق السوريون ما تبصر عيونهم، فقاسيون لم يعد لهم، وكذلك المدينة! إنه الجبل يقصف دمشقه! لا يصدّق السوريون ما يشاهدون، فـ«إخوانهم في الوطن» لا يترددون في إمطار أحيائهم بالقذائف. لا يمكن للسوريين أن يصدّقوا ما يرون، فـ«إخوانهم» يدمرون البيوت على رؤوس ساكنيها! إنهم يجتثّون الآثار والذكريات، ويحرقون ما بقي من الغابات من دون أن يرفّ لهم جفن! «إخوانهم» في الوطن!

يُفجع سكان دمشق بواقع قاسيونهم الجديد، على رغم أنهم راقبوا كل الإشارات التي مهّدت لذلك، لتمتزج دهشتهم المتألمة بمصاب جميع السوريين حين يرفضون تصديق ما يشاهدون: إخوةٌ يقتلون إخوتهم، وجيشٌ يقصف بلده! ليست الدهشة المتكررة هذه إلا التعبير الأصدق عن إيمان السوريين بمستقبلهم، فهم يصرّون على أنهم سيعيشون معاً مهما طالت دروب الألم! الدهشة هذه هي تعبيرهم العفوي عن رفض الانصياع إلى رغبة الطغاة في الاستسلام إلى الكراهية والحقد واليأس، إنها خط الدفاع الأخير من أجل المحافظة على الإنسان فينا. الدهشة الأسطورية القديمة، الدهشة التي صدّقت ما رأت من جمال الحياة، فأسست دمشق، والدهشة الجديدة، الدهشة التي ترغب ألا تصدّق ما ترى من تشويهٍ

للحياة، ستحميان المدينة من تراكم الأحقاد، لأن الدهشة تقدر وحدها أن ترى ما في الحلم من حقيقة!

جبلٌ بوجهين ومدينةٌ صارت غريبة

مريعٌ منظر الجبل حين تُقصَف منه المدينة، لكن الدمشقيين يقاومون قسوة الجبل بجمال ماضيه، فلقاسيون على الرغم من جفائه سحرٌ مدهش في ذاكرة مريديه. أهي تلك المخاتلة في رؤية المدينة التي ترقد عند سفحه وتمدّ أحياءها بمثابرة مزعجة حتى قمته؟ ربما! فالدمشقيون كانوا يصعدون الجبل المهيب لينظروا إلى مدينتهم بدهشة، كأنها عروسٌ يتعرّفونها للمرة الأولى. للإطلالة من قاسيون طعم مختلف، فالمدينة من فوق تواري ندوبها لتتساوى شوارعها المترفة بعشوائياتها. سحر قاسيون جذب فقراء دمشق وأغنياءها إليه، حين يخفي الليلُ بحكمته الفوارق الاجتماعية، فيستمتع الجميع بنسيم الجبل الصامت. في الليل أيضاً يرمي الساهرون في قاسيون همومهم على مدينتهم ـ استراحة قصيرة قبل نهارٍ شاقّ آخر، خصوصاً لمن أثقلت عليه الحياة بأوزارها، فبثّ فيه الجبل شيئاً من السكينة ومن الحنين إلى مدينةٍ تبدو وادعةً هناك على سفحه. لسحر قاسيون الغامض أيضاً صلةٌ بالبعد عن نميمة المدينة، فكثيراً ما ستر الجبل العاري بظلمته عشّاقاً هربوا من عيون الرقباء ليتبادلوا في أحضانه القبل، وهو يشهد على حكاياتهم، كما يشهد على فصول رواية المدينة وتقلُّب نوائب الدهر عليها.

الآن، أصبح لسحر قاسيون الغامض لونٌ آخر، حين صار للجبل الهائل وجهان: أحدهم يطلّ على دمشق حاضناً ومراقباً، والآخر تغزوه فرق الجيش والعسكر التي أدركت أن امتلاك الجبل هو امتلاك المدينة. اكتظّ وجه قاسيون الجديد بقطع الجيش وآلياته، ورُوِّضَ الجبل العتيد تماماً. في السنوات الأخيرة بدأ سحر قاسيون بالتلاشي أيضاً، فقد أطبق الخناق على فقراء المدينة ومتوسطي الدخل فيها، حين احتُلت أرصفته المجانية

بمطاعم فارهة يمتلكها الأثرياء الجدد الذين امتلكوا كل شيء في البلد، أو بمقاهٍ بسيطة الشكل لكنها تضنّ على مريديها بكأس شاي زهيدة الكلفة! هل كانت هذه مقدماتٌ لما يراه قاطنو دمشق اليوم من حممٍ تتدفق من قاسيون على أحياء مدينتهم؟ ألم يكن قاسيون غريباً على الدمشقيين في السنوات الأخيرة؟ نعم، لكن، وعلى الرغم من ذلك، يبقى الجبل صامداً في ذاكرة الدمشقيين! لذا لا تصدّق الفتاة ومعها المدينة وأسطورتها ما يرون، فواقع الدهشة وحنينها أقوى من قسوة الواقع: «ليتني متُّ ألف مرة قبل أن أرى قاسيون يقصف دمشقه»!

مدن الحرائق ومستقبلٌ تصونه الدهشة

تتصاعد أعمدة الدخان من أطراف دمشق، تُقصَف من قاسيون، في الوقت الذي تتوافد فيه الصور من حلب، شقيقتها: سوقها القديم يحترق، قلب حلب يحترق! تصمد حلب التاريخ في وجه مصائب الدهر وتقلّباته، لكنها تنهار أمام قذائف «الإخوة في الوطن». مع هذه المشاهد، يعلم غالبية الدمشقيين أن ألسنة النار المتصاعدة من الأحياء التي تحيط بقلب العاصمة، ستمتد قريباً لتلتهم وسطها، فمن لم يخشع أمام الأسواق الحلبية وبيوتها التاريخية، لن تردعه آلاف الحكايات المُعششة مع طيور السنونو في أسواق دمشق ودُورها القديمة.

يخبرنا التاريخ كيف انهالت المصائب وتوافد الغزاة على المدينتين بالتوالي، وكيف أنذرت الأولى شقيقتها بما سيحلّ بها، فعندما سلّم وجهاء دمشق أمر مدينتهم لجحافل التتار يقودهم تيمورلنك، كانت الحرائق لم تخمد بعد في حلب، وقد استباحها هذا الأخير. ظنَّ وجهاء المدينة وتجارها أن العهد الذي قطعه لهم تيمورلنك سيحمي المدينة، أو بالأحرى سيحمي رزقهم، وتناسوا عمداً ما فعله التتار في حلب. وحدها القلعة ومن التجأ إليها من سكان المدينة بقيت تقاوم حتى الرمق الأخير. تعيد «منمنمات

تاريخية» لسعد الله ونوس استحضار هذه الوقائع، فينسج منها الكاتبُ مسرحيةً تقول الكثير عن خذلان ذوي القربى، وعن جشع مكتنزي المال. في «منمنمات» ونوس أيضاً حكايات عن تخاذل رجال الدين والعلم، وعن هوان الناس، وفيها أيضاً قصصٌ عن مآثر وتضحياتٍ جسام، وعن حبٍّ يولد في قلب الموت والمعارك. في «المنمنمات» أيضاً حكاية الفتاة الحلبية التي لجأت مع والدها إلى دمشق بعدما دمّر التتار مدينتها، لتعيش هناك فصول معاناة جديدة، نجمت عن ظلم أهل البلد هذه المرة، على الرغم من كونها الوحيدة التي تعطف على البهلول الحر من قيود المدينة وعفنها أيضاً. استحضرَ سعد الله ونوس هذا التاريخ ليواجهنا بأسئلة مؤرقة، تحمل من اللوم على أناسٍ خنعوا للظلم وباعوا أنفسهم له، بقدر ما تحمل من إيمانٍ بنبل آخرين ونهوضهم ولو بعد حين. اليوم يعيد السوريون استحضار التاريخ حين يكتبونه بدماء شهدائهم وبرماد أحيائهم المحترقة تحت وطأة القصف، ليعيشوا المفارقة المأسوية الجديدة: على السوريين أن يعترفوا بهول ما يجري، لكن، وفي الوقت عينه، عليهم ألا يصدّقوا ما يرون بأمّ العين، وأن يقاوموا قبل كل شيءٍ بالدهشة. وحدها الدهشة تعترف بالواقع لكنها ترفض أن تتماهى معه! تأبى الدهشة أن يتحول الاستثناء البغيض قاعدة، فرصاص الجندي يجب ألّا يخترق صدر ابن بلده، والمَدافع لا يحقّ لها أن تصبّ نارها على مدن الوطن تباعاً. الدهشة المتجددة هذه تؤمن بأن الحلم سيبقى قادراً على خلق واقعٍ جديدٍ يقترب منا شيئاً فشيئاً، ليكون فيه للعدالة كلمةٌ أقوى من الرغبة في الانتقام: الانتقام من قاسيون وقذائفه!

ثرثرة لا تضيف شيئاً عن هوية امرأة مجهولة

«النهار» 2013/3/10

امرأة برائحة الوطن

هل تذكر تلك الصديقة العزيزة ما قالته لي يوماً عن أجمل لقاءاتها العاطفية؟ كان الشاب فلسطينياً تعرّفَتْهُ في إحدى سهرات السمر الدافئة. الجميع كان يتحدث إلا الغريب هذا، فقد ظلَّ ينظر في عينيها بوقاحةٍ ساحرة. ارتبكت الفتاة بدايةً، لكن طيفاً غريباً من نيران العينين المجهولتين استحوذ عليها، لتستسلم بعد برهةٍ إليهما وتدخل في طور الصمت المسكون. هكذا، ضاع الاثنان بحثاً عن شيءٍ ما، عن شعورٍ ما، عن لحظةٍ هشةٍ يؤمنان بها في غموض النظرة المجهولة. لم تفهم الفتاة وقتئذٍ ما حدث، وهو بدوره لم يشرح لها، لكنه في الأيام التالية صار يتجنب النظر في عينيها، ثم انقطعت أخباره. «لقد رحل!». «عمَ كان يبحث؟»، تسألني الصديقة، لتجيب بحكمةٍ أنثوية لا تخيب: «الشاب الغريب رأى في عينيَّ فلسطين التي لم يرها من قبل، فأطبق على الذكرى كي لا يضيع وطنه الذي وجده، ولذلك رحل من دون كلمات!» هذا ما قالته لي صديقةٌ في يومٍ ما، في مكانٍ ما، عن وطنٍ ما.

«الدون جوان» السوري

أمام حائطٍ غير مكسوّ، يخفي الشاب وجهه بكفيّه، يجلس القرفصاء

ويحمل لافتةً إلى المرأة المجهولة، وعليها كتب: «أنت الوحيدة التي ستعرفينني من عيني. مرَّ عامٌ ونصف عام. اشتقت إليك!». مرَّ عامٌ ونصف العام والرجل لم يلتقِ المرأة، فهو على ما يبدو عاجزٌ عن الاتصال بها لسبب نجهله. أهو منشقٌّ ويخاف على حياتها من نقمة الشبّيحة؟ ربما. أيخفي وجهه ليحمي من بقي من أهله حياً؟ ربما. أياً يكن الأمر، يكتفي الشاب بإظهار عينين مجهولتين تلتهبان لهفةً إلى امرأةٍ مجهولة، في مكانٍ مجهول. «لكن ألا تتشابه العيون السود؟»، يتساءل سائلٌ بموضوعية؛ «وكيف تستطيع المرأة المجهولة أن تعرف هوية العينين المجهولتين؟»، يتساءل آخر لا يؤمن بالعشق وبنظراته المؤلمة؛ «وهل عند المرأة المجهولة حسابٌ على «الفايسبوك؟»، يتساءل صاحب دمٍ ثقيلٍ بسماجة؛ «وهل المرأة المجهولة لا تزال على قيد الحياة؟»، يتساءل وجوديٌّ بنبرةٍ تراجيدية؛ «وهل وُجدت هذه المرأة أصلاً، أم اختلقها صاحبها في شوقٍ مضنٍ إلى شيءٍ يجهله؟»، يتساءل سوري خَبِر جرح الحنين!

تناقلت الكثير من صفحات الإنترنت صورة الشاب الوحيد هذه، وتنوّعت التعليقات عليها، فبعضهم عاتبه لأن الجندي «يجب ألّا يحب!»، والبعض رأى في المرأة المجهولة أماً لا حبيبة، «فرضا الله يأتي وبعده رضا الوالدين» تقول هذه «الفرويدية» التي تجهل ذاتها، في الوقت الذي تمنّى فيه آخرون للشاب الملوّع لقاء حبيبته. لكن بعض النساء كتبن على نحوٍ مدهش: «نعم عرفتك!»؛ «حبيبي، اشتقت إليك!»، قالت أخرياتٌ تعقيباً على الصورة، وقد تقمّصن بحنانٍ فريدٍ دور الأنثى المجهولة. يبحث الشاب الثائر عن امرأة ما، فتجيء الإجابة الأنثوية الثائرة مختلفة: هي ليست أنثى من تبحث عنها، بل «الأنثى في كل أنثى» (سورين كيركيغارد)، وفي بحثك المستحيل هذا عن ألف ولام التعريف تكمن مأساتك، وفي عشق المستحيل يكمن سحر عينيك المجهولتين. هذا ما قالته نساءٌ في يومٍ ما، في مكانٍ ما، عن امرأةٍ ما.

في مقاهي المنفى

تتكرر اللقاءات في مقاهي المنفى بعيداً عن دمشق، ويضيع رجالٌ ونساءٌ أُجبروا على ترك بلادهم في شغف العيون. نوعٌ من الحنين الغريب يلفّهم. يتبادلون القبل كما لم يعتادوا عليها في دمشق. تتعانق الأجساد في طقوسٍ جديدة بحثاً عن طيفٍ، عن مجهولٍ، عن شيءٍ لم يوجد ربما يوماً، عن ذكرى لم تحدث. تتلاصق الأجساد في ظلمة المنفى، ولا يزال سواد العينين يبحث عن أنثى، عن ذكرٍ، عن شبحٍ لكن بلون الوطن. «أتعرفين؟»، يقول الشاب لصديقته الجالسة في زاوية المقهى، «عندي حلمٌ وحيدٌ يحرق حشاي!». «ما هو؟»، تقول الفتاة بلهفة، فيجيب: «أن أرى وطني حراً، وأموت بعد ذلك بهدوء». «أتمنى أن ترى دمشقكَ حرة عما قريب»، تقول الفتاة الجميلة بخيبة أمل مبطّنة، لتضيف: «لكنني أتمنى أيضاً أن تعيش طويلاً فتستمتع بوطنك الحر!». يتمتم الشاب بضع كلماتٍ تفتقر إلى وضوح المعنى، في حين تتابع الفتاة محاولاتها التشجيعية لتحدّثه عن زمن العودة الذي يقترب. أما الشاب فيغمض عينيه العسليتين ليحلم بوطنٍ ما، بامرأةٍ صارت المرأة، بمكانٍ صار المكان، فتسيل من عينيه دمعةٌ يتيمة اعتاد دفنها عميقاً جداً، عميقاً هناك حيث لا توجد إلا ذكرياتٌ خافتةٌ وحلم...

في الحنين إلى غريب

«النهار» 2013/7/6

في حدس الأغاني: حنينٌ إلى مجهول

تُفتتح التظاهرة بأغنية حمصية ليغوص الحشد شيئاً فشيئاً في إرهاق الوجد. تتكرر اللازمة، يهتف الجمع، يصفّق، يغنّي، وتردّد الحناجر كلماتٍ جريحة: «حانِن للحرية حانِن...». للوهلة الأولى، تبدو كلمات الأغنية هذه عاديةً بديهية، لكنها تتجلى حين نتأملها فريدةً غريبة. تكمن غرابة الأغنية في المفارقة الأخّاذة: لم نذق طعم الحرية في ماضينا، لكننا نحنّ إلى الحرية هذه ونرغب في العودة إليها، كأنها فصلٌ من فصول تاريخنا، وعنه اغتربنا! ليس الحنين شعوراً جارفاً نحو ماضٍ نعرفه، تقول الأغنية، فالحنين يتفتق من أصوات المتظاهرين المبحوحة حالاً جانحاً نحو المجهول: «حانِن للحرية حانِن»! يتجلى الحنين في الأغنية هذه انجذاباً غامضاً إلى حالٍ نجهلها، ليذّكر بعضنا، خصوصاً من أرهقهم الحب في زمن الثورة، بأغنية رحبانية قديمة: «أنا عندي حنين ما بعرف لمين!». يستولي هذا الحنين علينا، تقول الأغنية، ليخطفنا من بين الساهرين معنا في رحلةٍ بعيدة نأمل في نهايتها التعرُّف إلى هوية من نَحِنُّ إليه، لكننا نفشل: «بيصير يمشّيني، لبعيد يودّيني، تأعرف لمين وما بعرف لمين».

يدفعنا الحنين إلى ما لا نعرفه، تقول الأغنيات. يشدّنا إلى شخصٍ غريب التقيناه هنيهاتٍ مقتضبة، وبعدها رحل ليخلّف وراءه هوةً لا قاع لها.

ننام، نستيقظ، نحلم به، تحاصرنا ذكراه، تزورنا في لحظةٍ اعتقدنا فيها عابثين أننا نسيناه. لقد رحل! ربما استشهد، لا نعرف! ربما نزح مع موسيقاه وسحره الغامض. لكننا نستمر في الحنين إليه، وإلى حريةٍ لم نعرفها إلا من بعيد. نفقد كل شيء من أجلها، ماضينا، حياتنا، أصدقاءنا. قمصاننا ممزقة، لكننا نشتهيها أنثى ثائرة، أو نشتهيه غجرياً مشعث الشعر. يمتصنا الحنين في لذة الرغبة ليجرفنا إلى مجهول. هذا ما تقوله الأغنيات!

في «ألم العودة»: حنينٌ إلى معلوم

حنين الأغنيات هذا شوقٌ إلى مجهول، أما الحنين الذي تعوّدنا عليه فحنينٌ إلى معلوم! يختلف الحنين الذي تنشده الأغنية عن شائع الحنين، فحنيننا السائد أقرب إلى الكآبة؛ نوعٌ من الانحباس في مرارة ذكريات نعرفها جيداً. يتجرّع الكثير من السوريين اليوم شيئاً من ألم هذا الحنين إلى معلوم؛ تتكثّف عواطفهم، خصوصاً حين ينزحون عن بيتٍ، عن أرضٍ، عن حبيبٍ أو حبيبة. تجتاحهم رغبةٌ عميقةٌ في العودة إلى ما كان، في الوقت الذي يعلمون فيه أن رحلة حنينهم لن تنتهي مع انتهاء نزوحهم، فالعودة المنشودة مستحيلة! لا يقتصر وجع الحنين هنا على الألم الحارق الذي يشدّنا إلى ماضٍ نعرفه ونرغب في العودة إليه، بل يمتدّ الألم ليشمل حالنا بعد العودة، فالدار صارت ركاماً بعدما دمّرتها الطائرة، والأحبة، أكثرهم، دُفنوا في مكانٍ ما، ودائرة الحقد انفسحت. هذا ما يقوله الواقع الأسود!

تعبّر كلمة «نوستالجيا» عن طبيعة هذه العودة المؤلمة التي ينشدها الحنين. هي كلمة مركّبة من لفظين يونانيين: «نوستوس» العودة، و«ألجوس» الألم. الحنين هنا هو «ألم العودة»، والألم هذا، مزدوج الطبيعة لأنه يبقى غير محدد زمانياً. هو أولاً ألمٌ يسبق العودة أو يرافقها؛ حالٌ من التمزق تستولي على الإنسان حين يرغب في العودة إلى حالٍ ما. لكنه ثانياً ألمٌ يتلو العودة؛ إنه ألم الإنسان حين يعي أن الواقع الذي إليه يعود يختلف عما يتمنى!

هكذا، يتجلى الحنين من جهةٍ أولى علاقةً مع ماضٍ ابتعد فآلمني، فدفعني لاحقاً إلى العودة إليه. لكنه يظهر من جهة ثانية كألمٍ جديدٍ يعقب عودتنا إلى ما نحنّ إليه، وكأن العودة التي انتظرناها طويلاً ستبقى عاجزةً أمام داء الحنين. هكذا يرسم الالتباس الزماني الذي تخطّه كلمة «نوستالجيا»، طبيعة الألم المزدوجة التي تجتاحنا: حنيننا ليس محض علاقة مع ماضٍ معلوم يدفعنا إلى العودة إليه مجدداً، بل هو أيضاً تَصدُّعُ هذا الماضي حين يفشل في إخماد النار التي تكوينا، ولذا يمتد الحنين!

في دفاتر المجانين: خواطر على جدار

الحنين الذي يجتاحنا اليوم مزيج من حنينين: حنينٌ إلى معلوم نعرف أنه رحل وانقضى، ونعرف أن العودة إليه مستحيلة؛ وحنينٌ إلى مجهول غامض رأيناه يوماً من بعيد، فصار الموت أمامه رخيصاً: «إذا كان ثمن الحرية الكفن فهو معي» (خاطرة على جدار في مساكن هنانو). الحنين الأول ماضويٌّ كئيب يقلب وجودنا تقهقراً ونزوحاً إلى جنة لم تعد موجودة. أما الثاني فحنينٌ إلى حالٍ أو شخصٍ يحمل من سحر الغرابة ما يتيح له إعادة تشكيل ماضينا من جديد. ليس الماضي هنا معلوماً نودّ تكراره كما كان، بل يحمل في جوفه مجهولاً ساحراً تصير معه العودة إلى الماضي رحلةً إلى اللامتوقع. لذا تتجلى العودة إلى مجهولٍ سَحَرَنا في يومٍ مضى، أشبه بالرحلة إلى مستقبلٍ ما، فالمستقبل في الضرورة مجهول: «حانِن للحرية حانِن!». نبحث في الحنين إلى المجهول عن أشياء، عن حالاتٍ، عن أشخاصٍ غرباء نحنّ إليهم، وأحياناً نختلقهم لنحنّ إليهم، فنحن مولعون بجمال المغامرة! إنه حنينٌ إلى شغف لحظةٍ فريدةٍ تدفعنا إلى اللعب مع واقعٍ أسود، لا بل إلى الرهان على حياتنا. إنه حنينٌ إلى حدس حفنة من الشابات والشبّان هتفوا لحريةٍ لم يتسنَّ لهم أن يعيشوها قبل أن يُقتَلوا؛ حنينٌ إلى حدس أطفالٍ من درعا خطّوا على الحيطان عباراتٍ يجهلون معناها، ربما.

حيطانهم «دفاتر مجانين» يقول البعض، لكننا نحنُّ إلى جنونهم، إلى تلك الحرية التي لم نختبرها إلا قليلاً!

في تحدٍّ سافر لواقعنا الحاضر، خطّت فتاةٌ ما، مسّها جنونٌ ما، هذا الحنين الدرعاوي المجهول على أحد الجدران: «ستعود ثورتنا كما بدأت، وكما كان عزاؤنا بها حين خذلنا العالم، طاهرةً كأغطية الصلاة وصادقةً كدموع الثكالى والأرامل!». وقّعت الفتاة باللون الأحمر: «اتحاد طلبة سورية الأحرار». إنها عودة إلى البداية، إلى تلك الصرخة الأولى التي دفعت بالكثيرين إلى المغامرة بحياتهم من أجل شغفٍ ما استولى عليهم ذات يوم. تتناسل الجنازات هنا وهناك، في الوقت الذي يرسم فيه شابٌّ ما، لوحةً ما، على حائطٍ ما، هديةً لشخصٍ غريب التقاه يوماً قبل أن يرحل، وإليه يحنُّ. ينهي الشاب لوحته ليخطّ على الجدار دعاءً جديداً لم نعتد عليه في المساجد والكنائس: «اللهمّ أرسِل إلينا مجانين!».

في فصول النزوح

بيروت ووافدوها الجدد: المسافة التي لا تقربها المأساة

«النهار» 2012/9/15

محمد العطار ـ نبراس شحيّد

الوجه الأصفر من معرة النعمان إلى بيروت

تُلقي جارتنا النرد في المقهى، ومعه تتدحرج الذكريات. وجوه البارحة تتناسل في مخيلة محمّد، لأرى في عينيه شيئاً من وجهها الأصفر. أسأله عن شكلها: «السيدة في بداية العقد الرابع، لها وجهٌ حنون ودمث. قابلتها في بيت أقرباء لها لجؤوا إلى المخيم قبلها». أتخيَّل المشهد: بيتٌ صغير في مخيم فلسطيني في بيروت، له غرفة واحدة، كغالبية البيوت هنا، ينام فيها قاطنوه كلهم، يجلسون، ويأكلون. «بادرتها بابتساماتٍ مرتبكة»، يتابع محمد، «فأطرقت رأسها إلى الأرض شاكرةً. ساد بعدها صمتٌ ثقيل، فلا مدخل لائقاً، وكلانا ينتظر. أحسم موقفي وأتحلى بالشجاعة لأسألها: «لِمَ أنت هنا؟»».

يغرق محمد في تفاصيل الحكاية صامتاً قبل أن يسردها ببطءٍ. أمٌّ تفقد زوجها أولاً، وبعده ابنتها البكر وهي على وشك الولادة. قذيفة عمياء كباقي القذائف تقطف روحين متجاورين. أفكر في الجنين وادعاً لا يزال في رحم أمه الشهيدة، أيّ تجاورٍ أبدي هذا؟ «كنتُ أدخلُ عليه أحياناً فأراه يحضن ثياب زوجته ويبكي، زوجان جديدان، لم تنقضِ سنة على قرانهما»، يعيد محمد على لسان المرأة. يخبرني عن صعوبة الموقف. «لم تستطع

الصمود طويلاً، دموعها انحدرت على وجنتيها برقةٍ وببطء. أثناء حديثها، كنت أسترق النظر إلى شاشة التلفاز وراءها، حيث يظهر الأسد متحدثاً إلى قناة «الدنيا». لا تنتبه هي، أنقل نظراتي بين وجعها الدامع وشاشة التلفاز، أيّ مفارقةٍ هذه؟ ملهاة أم تراجيديا عصرية؟». مجدداً، يلمع وجه المرأة في عيني محمد. أراها فيهما تجمع أطفالها الثلاثة المتبقين، تهيم على وجهها حتى تصل إلى مخيم الداعوق في بيروت. «أحد الأطفال، وهو صبي صغير، يعاني من مشكلة في السمع، بسبب القذيفة. يجب أن يُعرَض على طبيب!». أتنهّد وأتذكر مريضاً سورياً آخر أدخله أصحابه الشهر الماضي إلى لبنان لتلقي العلاج، فالأطباء في سورية لم يجدوا له حلاً بسبب نقص المعدّات. دار أصحابه به مؤسسات بيروت، لكنهم لم يجدوا من يساعدهم في إسعافه، فلا نقود لديهم. لذا أعادوه إلى سورية مجدداً من طريق الجبال! بيروت، هل «مُنذر» لا يزال على قيد الحياة؟!

بيروت النزوح وعجز الانكسار

يزوّدنا المقهى لحظاتٍ مقتطعةً من حياة قلقة. في المقهى أيضاً أستطيع أن ألقي على نبراس بعضاً مما يثقل على نفسي، ففعل البوح هنا نادرٌ وصعب، يتحايل على وحدة قاسية لنتعايش معها. يُخبرني نبراس عن شاب مقدام كان يعمل على إغاثة ما يقارب مئتي عائلة مشردة في دمشق. يحمل السكّر والأرزّ على ظهره إليهم. يلعب مع أطفالهم، ويجلب لهم الحلوى والأغاني. صديقنا هذا اضطر اليوم إلى الهرب من مدينته ومعه عائلته إلى بيروت. لم يجدوا مؤسسةً تعطيهم فرشاً لينناموا فوقها! صديقٌ آخر كان قد كرّس نفسه للعمل مع عائلات النازحين المتكدسة في دمشق! جار عليه الزمان واضطر إلى الهرب من مدينته لأنه ملاحق. هو الآن تائه في بيروت! أنفق كل ما يملكه من أجل مشردين آخرين حتى صار منهم! بيروت، هل تسمعين صراخنا؟!

في العيد المنصرم كانت إحدى الفتيات السوريات اللواتي هربن من

سورية، توزع ألعاباً على أطفال سوريين في أحد المخيّمات الفلسطينية. محاولة بائسة ربما لزرع البسمة. تهرول طفلة صغيرة محاطة بأقرانها، لتمسك برجل الفتاة وتصرخ: «أنا كمان بدّي لعبة». تنهرها امرأة فلسطينية بهية، وهي أم المخيم كله: «هدول بس للسوريين، روحوا إنتو». ينكمش الأطفال ويتراجعون لينظروا من بعيد، ترتبك الفتاة قبل أن تتابع توزيع الألعاب (القليلة) ثم تنسحب فجأة. أتابعها بنظراتي فأراها تبكي بحرقة، تبكي وتبكي. أبتعدُ لأنحني نحو الأطفال المختبئين خلف الجدار في انتظار أن يحصلوا على لعبة ربما. تسألني الصغيرة: «ليش عم تبكي هديك؟»، أبتسم بمشقة: «لأنو خلصو الألعاب». ينبري أحدهم وهو صغير جداً: «أنا بجيب لعبي، لا تخلّيها تبكي»، ثم يهرول ويصحبه ركب الأطفال مُحدثين جلبة. أنهض وأغادر المخيم مسرعاً.

كجنديّ «يُشعل لفافته بين الأنقاض»

بيروت، نلتجئ إليك فلا تفتحي أذرعك! لِمَ؟ تتداخل خيالات منذر في رأسي مع كلمات العامل القادم من درعا في رأس محمّد: «أبحث عن مكان آمن أعيش فيه! هل من المعقول أن أنجو من المجزرة في سورية ليتم اختطافي هنا؟»، يبتسم مكشراً، ويعرض على محمد قميصه المثقوب. «هذا أثر رصاصة! في منزلنا لم يوفر الجنود حتى خزانة الملابس! لقد أطلقوا النار على كل شيء». يتكرر في الذاكرة ضجيج غالبية سائقي السرفيس الذين أقلّونا: «في سورية توجد مؤامرة لا ثورة!». أحد السائقين قال لصديقتنا: «لو كنت أعرف أنكِ سورية لما سمحت لك بصعود سيارتي!». أصواتٌ، صخبٌ تهدر به الذاكرة، لترسم حكايات الغربة في بيروت، فتتقاطع مع قصائد قديمة: «ضمّني بقوة يا لبنان. أحبك أكثر من التبغ والحدائق. أكثر من جندي عاري الفخذين يشعل لفافته بين الأنقاض» (الماغوط). بيروت هل تسمعيننا؟!

لِمَ لا تُقربنا شفتا الجرح الواحد؟

يوقظنا النرد مجدداً من تراكم الأصوات وأشخاص الحكايات، يتدحرج على الطاولة المجاورة. «شيش بيش» تقول الفتاة. ألتفتُ إليها لأتذكر باسل شحادة. لقد كان هنا حول الطاولة هذه في نيسان الماضي قبل أن نُلحق باسمه لقب «شهيد». تجمّعنا حوله ليخبرنا عن أحوال الأحباب في دمشق وحمص. «الوضع مأسوي! أحياءٌ كاملة محرومة من الطعام»، كان يقول. يشتمّ الجميع سوء الحال، ليسود بعدئذ الصمت في مقهى الذاكرة. هؤلاء الجياع هم الآن هنا في بيروت، وأمعاء المدينة تلفظهم. لكن، بيروت، لا نريد أن نحمّلك مأساتنا كلها، فقد عرفتِ مثلنا أيضاً جورَ أهلك، بعضِهم، وظلمَ ذوي القربى على حدٍّ سواء. سباقةٌ أنتِ في حمل المآسي، وفي تحمّل وزر المستبدين، لذلك اعتقدنا أنك الأقرب إلى بوح القلب حين يُفشي أسراره. في المقهى الصغير نبحث عن ملجأ بلون الوطن، ننسجه من ذكرياتنا، من أحلامنا، من حكاياتنا. في هذا المقهى المختبئ، تردنا الاتصالات كلّ مرة تتصاعد فيها الأحداث لتحذرنا من الخروج بسبب الخطف العشوائي! سخريةٌ مريرة بلون الغربة. سوريون ينشدون الأمان، فيُختطفون لأنهم ولدوا من جديد. في بيروت القريبة والبعيدة، بيروت اللدودة، يَدفع السوريون، عمالاً ولاجئين، أثماناً باهظة. نفكر في الزمجرات والتهكم التي يستقبلنا بها البعض، عندما يعرفون أننا سوريون، بإيجارات البيوت التي تتصاعد، وتكلفة الحياة الباهظة هنا. لكن في بيروت القاسية، نجد أيضاً من يحتضننا ويشاركنا هموماً خبِرها جيداً. بيروت، أيّ مدينةٍ أنت، ظلمناك وتظلميننا؟!

ليل بيروت والسكينة الموقتة

يتوقّف النرد عن الدوران، وتتثاقل الأقدام إلى البيت عائدةً تجرّ حكايتها. أفكر دوماً في ليل بيروت، يتقاسمه أهلها الساهرون والسوريون

الناجون فيها؛ ليل بيروت الذي يعطي الوافدين بعض السكينة الزائفة. أمارس هوايتي اليومية في السير المتثاقل في الهزيع الأخير من الليل. أمرّ بجانب محطة بنزين، وكما الليالي السابقة أشاهد شاباً يركب دراجة هوائية مترنحاً كمن يقود دراجةً للمرة الأولى. أقرر أن أقترب منه هذه المرة: «هل تتعلم قيادة الدراجة؟»، يرتبك ويكاد يقع. «نعم، أحاول. هذا مفيد للحركة ليلاً حيث لا زبائن كثر». أعرف من لهجته أنه من السويداء، فيؤكد لي ذلك، «وأنت من أين؟»، «من دمشق» أجيبه. لا يزال مرتبكاً، فأبادره القول: «لم أستطع مقاومة فضولي، فأنا أمرّ كل ليلة تقريباً من هنا، وأشاهدك تحاول ركوب الدراجة الهوائية»، فيفاجئني بدوره: «أراك أيضاً تتمشى برفقة صديق لك أحياناً»، «نعم نبراس». يسألني: «هل تعملان هنا؟»، أبتسم: «ربما، أنا أعمل في مجال المسرح، وتالياً أنا لا أعمل، أما صديقي فهو رجلٌ يبحث عن أجوبة، أو ربما عن أسئلة!». تبدو الحيرة واضحة على محيّاه، «لا عليك، لماذا تتعلم ركوب الدراجة هنا؟»، أسأله ليجيب: «أظن أنها أفضل وسيلة لأتحرك قليلاً أثناء وردية الليل». أقول له: «ما رأيك أن نعود إلى سورية على الدراجات الهوائية؟ الطريق شيقة وجميلة، والمسافات أقرب بكثير مما تبدو عليه. عليك التدرب جاداً فربما نعود قريباً». يبتسم ويسأل: «قريباً؟»، أُجيب: «عليك التدرب، فالحرية كما الحب لا يستأذنان عند القدوم!». يضحك كاشفاً أسناناً جميلة: «نعم قريباً»، ثم يواصل القيادة مرتبكاً، ويبدأ بالدوران حولي، تنتظم حركاته رويداً رويداً. «أنت جاهز تقريباً» أقول له، ويستمر بالدوران حولي بحركات تزداد ثقة، «نعم جاهز... كالحرية» يجيبني، ثم يضحك كالأطفال مزهوّاً بإنجازه، يضحك ويضحك. إنه أول أيلول، والهواء الراكد في صيف بيروت القائظ بدأ يتحرك ليذكّرنا بأن الخريف يلوح لنا ولو من بعيد. أجلس متكئاً على سور متسخ، مراقباً صديقي الجديد المبتهج. تبدو بيروت الليلة أقرب منا وإلينا. ليلها يهدهد أشواقنا، لكن ماذا عن الغد؟ ماذا يا بيروت؟

حكايات النزوح ونفحات أنثوية

«النهار» 2012/11/24

تشتمّ رائحة اللحم المحروق من كلماتها. لحم زوجها المتآكل يسكن ظلّ المرأة، يطاردك أينما ذَهَبْتَ. لحمٌ أسود، متفحم، يطفح من العينين، من الأذنين، من المنخرين، ويختلط بذكرياتِ عزاء الابن الذي لم يمت. قالوا لأم سامر: ابنك مات في المعتقل شهيداً من التعذيب! أقاموا له صلاة الغائب وعزاءً يليق بالأبطال. زوجة الابن لبست الأسود، لتصير زوجة الشهيد، وتكابر على دموعها. إلا أن الابن في صباح جُمُعَةٍ ممطرة، طرق باب منزله بعد خمسة أشهرٍ من الغياب وعاد! لم يمت سامر في المعتقل، لكنه رجع إلى الدار بعدما أكلت السياط جسده. زوجها أيضاً لم يمت! أعادوه إليها من المعتقل في المرة الأولى، وأصيب في المرة الثانية، لكنه أيضاً لم يمت. كان واقفاً في صباح إحدى الجُمع يترقب اقتحام بلدته من الشرفة. رصاصةٌ عمياء أصابت عمود الكهرباء المقابل للمنزل، فانقطع السلك ليرتطم بالرجل، فتصعقه الكهرباء ويسقط من الطبقة الثانية. لم يمت الرجل! لكن جسده تهشّم وتفحّم. تآكل لحمه والتصقت يداه بجذعه. لم يمت الرجل، لكن حياته صارت أقسى من الموت، على الرغم من محاولات الأطباء الحثيثة ترميم ما يستطيعون من اللحم المهترئ.

أجسادٌ تطفح من عينيها محروقةً ومهانة، تحملها أم سامر ذكرياتٍ تعود بها إلى مكان طفولتها، إلى مخيم شاتيلا. في بيروت، أثناء الاجتياح،

أصيبت المرأة بشظيّة إسرائيلية أدّت إلى شلل قدمها اليمنى. أم سامر نازحةٌ من فلسطين، أنجبت من زوجها الأول ولدين اثنين قبل أن يختفي الرجل ليصير من عداد مفقودي حرب لبنان. تزوّجت مرة أخرى من رجلٍ سوري بعد خمسة أعوام، وذهبت لتعيش معه في بلدته، وأنجبت خمسة أطفال، ربّتهم من دمع العين على إيقاع ماكينة الخياطة. وها هي ذي الآن تعود مجدداً إلى مخيم شاتيلا، بعدما اقتحم الجنود منزلها في ريف دمشق، وكادوا يقتلون ابنها الصغير. محمد أيضاً لم يمت لأن الضابط المشرف على اقتحام الحي ترأّف بالمرأة. عادت إلى شاتيلا مع ابنها الصغير وابنتها رغد التي تعمل في الحلاقة، على الرغم من إعاقتها الكبيرة! عادت أم سامر نازحةً كما كانت، ليحضنها نازحون آخرون، منهم وسام، شابٌ رائعٌ وصديقٌ عزيز، رافق المرأة في شاتيلا، وحاول أن يساندها في معركتها ضد الموت، إلا أن جهوده أخفقت في شراء جهازٍ يساعدها على المشي. لكن أمّ سامر كان لها رأيٌ آخر: «لا تشترِ لي قدماً جديدةً، بل اشترِ لي ماكينة خياطة أعيل بها أولادي يا وسام!». جسدُ رجلٍ متفحّم ينبعث من جسد امرأة مشلولة، ليصير الجسد ذاكرةً تقاوم الموت، وفيه تمتزج شظية إسرائيلية برصاصةٍ سورية، هنا في الجسد ـ الذاكرة. هنا الطائرات الخرقاء تقصف غزّة ودمشق، وتنهش الجسدين، والمرأة تبحث عن إيقاع ماكينة الخياطة، هنا من شاتيلا القديمة، لتقاوم إيقاع الموت.

هنا في شاتيلا ينصهر الجرحان، ويردد المتظاهرون في حلب: «لبيك، لبيك، لبيك يا أقصى». الجمعة الماضية، قبل التظاهرة المنددة بالعدوان الإسرائيلي على غزة، كانت أم أحمد في شاتيلا تشتري فرشاً للأولاد السوريين النائمين على الأرض. أم أحمد، فلسطينية ذاقت الويل في معتقلات النظام السوري قبل أن تعود إلى بيروت منذ بضع سنوات. التقيتها والدموع في عينيها في المستشفى، حين كانت تُعنى بجريحٍ سوري مهشّم الورك. على امتداد نهارين وليلتين، ظلّت تطرق الأبواب لتجمع ما يلزم من

نقود لإجراء العملية. أم أحمد أمٌّ لسوريّي المخيمات في بيروت، يعرفونها كلهم، خصوصاً النسوة منهم، فهي التي تعتني بهنّ وقت الولادة. هنا في المخيمات الفلسطينية يعمل سوريون معدمون، هنا أيضاً يعمل ناشطون، هنا ينامون مكدّسين في بيوتٍ لا تعرف نور الشمس. هنا في المخيمات ابتدأت مبادراتٌ صغيرة لجمع بعض الألبسة المستعملة، وهنا صارت كبيرة حيث لا معين إلا الأخوّة ووحدة الجرح. الأسبوع الماضي، افترشت امرأةٌ سورية الشارع مع بناتها لأنها لا تملك نقوداً. الأسبوع الماضي، قام ناشطون فقراء بإيوائهن وجمع ما يلزم من نقود. الأسبوع نفسه أعطى أحدهم بعض الأصدقاء أربع فرشٍ كي لا يناموا على البلاط المتعفّن، والليلة نفسها أعطى الأصدقاء الفرش لمن هم أكثر احتياجاً وناموا على الأرض! هنا تتناقل الجدران قصصاً بلون الدم. هنا يحلم الفلسطينيون بوطن مغتصب، وكذلك السوريون. أم أحمد، أم سامر، أم محمد، تختلط الأسماء في رأسي لتتماهى مع أم سعد الكنفانية: «أم سعد، المرأة التي عاشت مع أهلي في الغبسية سنوات لا يحصيها العدّ، والتي عاشت، بعد، في مخيمات التمزق سنوات لا قبل لأحد بحملها على كتفيه، لا تزال تأتي إلى دارنا كل يوم ثلاثاء: تنظر إلى الأشياء شاعرةً حتى أعماقها بحصتها فيها، تنظر إليّ كما إلى ابنها، تفتح أمام أذني قصة تعاستها وقصة فرحها وقصة تعبها، لكنها أبداً لا تشكو» (غسان كنفاني، «أم سعد»). هنا في المخيم، جباهٌ مرفوعة، نساءٌ متعباتٌ، وأولادٌ يلعبون في شوارع غصّت بالقمامة. نازحون قدماء ونازحون جدد. هنا في المخيّم، لا يزال صوت أم سعد حيّاً: «برعمت الدالية يا ابن العم برعمت»، هنا «حيث غرست (أم سعد) ـ منذ زمن بدا لي في تلك اللحظة سحيق البعد ـ تلك العودة البنيّة اليابسة التي حملتها إليّ ذات صباح»، هنا «تنظر (أم سعد) إلى رأس أخضر كان يشقّ التراب بعنفوان له صوت». هنا في شاتيلا حيث تفوح الكلمات برائحة اللحم المحروق، اللحم المهان، اللحم المشلول. وهنا أيضاً يفوح الحنين برائحة الوطن...

في الجسد المستعاد

في الثورة وخرائط الجسد

«النهار» 2012/8/25

إيزيس الحكاية تجمع أشلاء أوزيريس

فجأةً ينهمر الرصاص، معه قذائف وقنابل، فتسقط أجساد كانت للتو ترقص، تقفز، تصرخ، تتظاهر. تتناثر الأشلاء. تنتهك القنابل حرمة الجسد لتظهره تشريحيّاً: أمعاء من بطون مبقورة، عظامٌ تتعرّى، جلدٌ يُسلخ، عيونٌ تُقتلع، ومخاخٌ تتطاير من الجماجم. يحاول العنف أن يجعل من الجسد مجرد جسمٍ بيولوجيّ، معطّل الوظائف، كريه المنظر، لكنه يفشل! يهرع المتظاهرون إلى لملمة الأشلاء، إلى أنسنتها. يقبّل الثوار جثثاً مجهولة، كانت في الماضي مرعبة، ليصوغوا من الأشلاء حكاياتِ من استشهدوا، فتختلط أنسجة الأجساد بنسيج الكلمات، فتحيا من جديد. يرفض الجسد المنتفض أن يكون موضوعاً مشيّأً، بل يصير ذاتاً حين تنقلب الجنازات تظاهراتٍ تحتفل بأشلاء تعود أجساداً في ذاكرتنا، في القصص التي نرويها عن الراحلين. يتجمّع أهل الحي حول النعوش، تتشابك الأجساد من جديد، وتصدح الحناجر بالأناشيد، بالزغاريد، وتصارع العيونُ الدموعَ، ليستمر الجسد في الولادة رغماً عن الموت! في سورية ـ النظام يُختزل الجسد في وظائفه البيولوجية، في الخوف من سجّان خَبِرَ تحقير الجسد، في صورةٍ نمطيّة ميتة. في سورية ـ الصرخة ـ السؤال، يصير الجسدُ حياةً تتحدى الموت لترقص من جديد، لتلملم ذاتها، لتبدعها.

الجسد الأنثوي خريطة مجتمع

شهد المجتمع السوري في السنوات الأخيرة ظاهرة جديدة أخذت في الانتشار، عرفها من قبله المجتمع المصري وغيره من المجتمعات العربية: نساءٌ محجبات يرتدين ألبسةً لا تتناسب وفكرة الحجاب. للظاهرة هذه مدلولاتٌ كثيرة، فجسد المرأة معيارٌ أساسيّ لفهم ما يسود المجتمع من تناغمٍ وتصارع بين مكوّناته. يُعرّي جسدُ المرأة حالَ مجتمعنا، حين يصير صرخةً تُعبّر عن ذاتها بالظاهرة المذكورة، فيفضح، بألوانه، بحركاته، بالأقمشة التي تستر اللحم الغض أو تكشفه، الإشكالية العميقة التي نعيشها على مستوى الهوية. تتصارع في الجسد الأنثوي هنا قوىً متناقضة، لم تجد بعدُ إلى الحوار المجتمعي الناضج سبيلاً. فمن جهةٍ أولى، نرى الجسد الأنثوي بإرثه الثقافي متطلّعاً إلى الحداثة الغربيّة وتباشير حريتها. لكن الحداثة الموعودة تبقى غريبةً عن الواقع، من جهةٍ ثانية، فالجسد الأنثوي لا يزال خاضعاً لأصالةٍ تقليدية، لم تعد في كثيرٍ من الأحيان مقنعةً، وإلا لما حاول تجاوزها. لا يُقصد بالأصالة غير المقنعة هنا، معتقدٌ دينيّ ثقافيّ معيّن، بل انغلاق الموروث الثقافي على ذاته، على نحوٍ قد تتجمد فيه القيم الاجتماعية والدينية النبيلة التي يحملها، فتفقد مرونتها وقدراتها الخلّاقة. لذا، نرى الجسد يتفكّك بين رأسٍ مستتر وأعضاء صارخة، فيضيع بين ماهيتين متصلبتين: أصالةٌ جامدة وحداثةٌ غريبة، لتعكس العيون أحلاماً مبعثرةً وتطلعات شريدة، تقف طبيعةُ المجتمع حائلاً دون تحققها. تفضح تطلعاتُ الجسد الأنثوي عجزَ الماضي، الذي تغنّينا به طويلاً، عن الإجابة عن أسئلة الحاضر. لكن اصطدام التطلعات هذه بطبيعة الواقع، تعبّر أيضاً عن عدم تناسب الحداثة المرجوة مع «الآن» و«الهُنا»، لأنها في الكثير من الأحيان تبقى محض أفكارٍ ظلت غير منسجمة مع طبيعة المجتمع. الحال إذاً تشبه، أكثر ما تشبه، غربةً مزدوجة: غربة في ماضٍ عاجز، وأخرى في مستقبل حداثيّ موعود لم يترعرع في رحم الواقع، لتتشابك الغربتان في جسدٍ يصارع الغياب.

حين يولد الجسد قيصريّاً من رحم السؤال

في أولى تظاهرات دمشق (15 آذار 2011)، لم يكن الهتاف الأول الذي صدحت به الحناجر إلا سؤالاً عن ذات مفقودة: «وينك يا سوري وينك؟». «أين أنا من أنا؟»، يقول السؤال الأول الخارج من رحم الجسد، من النسيج الحي، من الحبال الصوتية، ليرسم عمق الغربة التي نعيشها، فيبدأ مشوار البحث الأليم عن الذات. لم تكن اللحظة الثورية في طورها السوري الأول إلا تفتّق السؤال هذا، متمرّداً على عادية الماضي الجامدة التي فيها سُجِنّا، ومولوداً من صلب الواقع ومعاناته، لا من حداثة بقيت غريبةً عنا. لم يكن السؤال هتافاً دينياً، لم يكن شعاراً، بل إمكان مشروعٍ حداثيّ جُبلَ بصرخة وجودية، تقول: إني لم أعد أنا! صوغ السؤال جاء بالمفرد، من غربة الجسد، أما الإجابة ففي صيغة الجمع تُحاك: أجسادٌ تتلاصق، أيادٍ تتشابك، نساءٌ محجبات منقبات سافرات، رجالٌ، أطفالٌ، أقدامٌ تكرّ تفرّ، والحناجر تتوحّد حول سؤال يكرر ذاته بلا توقف: أين أنا من أنا يا أناي؟ هكذا، أوجدت الثورة، على الرغم من المزالق والانعطافات التي مرّت بها، مساحةً جسدية جماعية جديدة تستطيع ذات الفرد فيها أن تبحث عن نفسها، شرط أن يبقى السؤال حيّاً فينا: وينك يا سوري وينك؟

حين يتغلغل الوطن في مسام الجسد

في إحدى تظاهرات دمشق «الطيّارة»، تجمّع عشرات الشابات والشبان في شارع الحلبوني للمطالبة بإسقاط النظام ولنصرة المدن المكلومة. لكن ما إن انفضّت التظاهرة حتى انقضّ على فلول المتظاهرين الشبّيحةُ بهراواتهم الغليظة وشتائمهم التي تحقّر الجسد. تجمّد أحد الأصدقاء، ثلاثينيّ العمر، وأمامه ارتعدت فتاةٌ محجّبة كانت تشارك في التظاهرة. قال لها بعجل: أمسكي بيدي كي يحسبونا خطيبين نتسكّع مصادفةً هنا، فلا يشكّوا فينا. لم تتردد الفتاة، فلفّت يده بيدها لتتشابك الأصابع، والتصق

الجسدان بتناقضاتهما: الكتف على الكتف، والوجه الذي لم يعرف الصلاة أوشك أن يلامس وجهاً يطأ الأرض خمساً في اليوم. مرّا بهدوءٍ من بين عصابات النظام التي قلبت التظاهرة مسيرةً مؤيّدة، من دون أن يكلّمهما أحد. استمرّ المشوار دقيقتين أو ثلاثاً، لكنه بدا دهراً، والعرق غسل جبينيهما من حذر الماضي. عبَرا الطريق، ثم وقفا، فشكرها وشكرته، لكن الوداع كان عصيّاً، فالجسد السوري سرى في مسامهما متسامياً على تناقضات قديمة حكمت جسديهما طويلاً. التناقضات القديمة هذه لم تندثر بالطبع اليوم، فهي لا تزال تعمل في أجسادنا. لكن وعلى الرغم من ذلك، صار في إمكان الجسد ألا يبقى هوّةً نتمزّق فيها بين عجز الماضي وغرابة الحداثة، وصار في إمكان الجسد أن يصير مشروع حياة، لا بل مشروع وطن نصوغه في شغف السؤال: وينك يا سوري وينك؟

أنا الجسد أعلن انشقاقي وهذه هويتي!

«النهار» 2012/9/8

في الذكورة المشوّهة

حين كنا طلاباً في الجامعة، كنا مجبرين على تخصيص نهارٍ كاملٍ أسبوعيّاً لـ«التدريب العسكري الجامعي». في الإطار ذاته، كنا مرغمين أيضاً على المشاركة في معسكرات صيفية، كانت أشبه بمعسكرات الاعتقال. «يا حيوانات يا ولادين الـ... منّك إلو»، يحيّينا المقدَّم المسؤول عنا في الصباح. نهرول كالأيتام، نتدافع، نهرب إلى خيمنا الممزقة، فيتعقبنا الضباط. يعاقبنا المقدَّم، عراةَ الصدر تحت شمس مدينة الضمير الحارقة، لأننا لم نستمع إلى حديثه الشيق! اللغة السائدة في هذه الأجواء هي لغة شتائم «الزنار وما دونه»، أما الثقافة المهيمنة فهي ثقافة هدر الوقت بامتياز: ثقافة تتكفل تشويه ما بقي من حياتنا الجامعية. هي ثقافة اللهو بكل شيء يمكنه أن يخفّف من وطأة الزمن الخاوي («لعب الشدة»، صيد العقارب...) في ظروفٍ كنا نُمنع فيها من إدخال الكتب إلى المعسكر! هي ثقافة إذلال الطلاب التي تتيح لبعض المشرفين عليهم أن يفرغوا ما في جعبهم من عقد النقص ومرارة الحياة. هي نوعٌ من الثقافة العبثية الممنهجة التي كانت كفيلة بإغراقنا في فراغ وجوديّ عميق، نشعر فيه بانعدام قيمتنا، وبرتابة الزمن الذي يحكمنا، لا بل بحقارة أجسادنا! كان يكفي مثلاً أن نضع البدلة العسكرية علينا حتى نصير «زعراناً»، بحسب تعبير إحدى صديقاتي في

الجامعة، «نلهث وراء زميلاتنا في الكلية كضوارٍ جائعة لا ترى في الجسد إلا أداةً تثير الشهوة»، لا شخصاً ينضح بالحياة! كان ارتداء البدلة كافياً لكي «تتبهدل» لغتنا الجامعية، وتختزل في قاموس السُباب والجنس العصابي الذي يُسقط الحب والكرامة من مفرداته. باختصار، كان ارتداء البزة العسكرية، وما تمثله من تشوّه ثقافي، كافياً لكي ينحطّ شيءٌ عميقٌ من إنسانيتنا، فتُسطّح اللغة والزمن، ويُختزَل الجسد في جسمٍ مشيّأ لا همّ له إلا البحث عن متعة مفقودة.

في الثقافة العدمية

تشكّل الثقافة المسطحة هذه، حين تصيب جسد المؤسسة الجامعية، تجلياً فاضحاً لحال الثقافة التي بناها النظام في مجتمعنا، فتُوسّع بما تولّده من إسراف في اللامعنى، وبما تحمله من تتفيه للجسد والزمن واللغة، من الهوة التي تحكم ثقافتنا العربية بين جسم وظيفيّ ونَفْس مفكرة متعالية، لا شاغل لها إلا إخضاعه. يغرق الإنسان هكذا في فصام «المادي» عن «الروحي»، و«الديني» عن «الدنيوي»، لأن تحويل الجسد محض أداةٍ، أو كتلة من الوظائف البيولوجية، قد يدفع الإنسان، من جهة أولى، إلى العيش على مستوى الحاجة الخام، فتنحصر حياته في هموم الأكل والشرب والجنس. تالياً، تحطّ الحال هذه من مكانة المرأة، لتتحوّل جسداً يسهل امتلاكه، فتصير الأنثى محض جنس لطيف، يتوطّد معه تحجّر الثقافة الذكورية العاملة في عقليتنا. لكن ثقافة اختزال الجسد هذه لا تكتفي بتقليص الوجود إلى الحاجات المباشرة، بل نراها تعزّز، من جهة ثانية، ظهور أنواعٍ من التديّن المنفصلة عن الواقع، لأنها لا ترى في الجسد إلا سجناً وغربة، فتلجأ إلى واحات التقويات هرباً من وجود صار هباءً، فتضيع في الماورائيات. ثقافة اختزال الجسد هذه عدمية، لأنها تُفلت من كثافة الوجود لتلتجئ إلى عوالم الغيب متناسيةً الحاضر، أو تنحصر في

مباشريته البيولوجية المحضة. هذه الثقافة عدمية، لأنها تقسم الإنسان على ذاته، فيتغرّب بين «جسد» و«نفس» متحاربين، على نحوٍ يحطّ من مسارات الفكر ومن إبداعات الجسد. هذه الثقافة عدمية، لأنها تُلحق المرأة بالرجل، لتصير ملكاً له ومصبّاً لأهوائه.

في الأنوثة الحية

الصورة النمطية هذه عن الأنثى هي اليوم في صدد التفكّك. يذكر معن العاقل في مقاله عن الفنانة هبة العقاد، ابنة حي الميدان الدمشقي، ما يأتي: «مع انطلاقة الثورة السورية، كانت هبة الحرة في المقدمة (...) كانت تمتلك حرية الفنان وفرديته، وحرية الأنثى الشخصية، لكن هذه الحريات مقيّدة بسلاسل المجتمع المعنوية، وأكثر من ذلك بسلاسل الاضطهاد والقمع السياسي والفكري والحضاري لسلطة أوغلت في الاستبداد. فجأة، صار أهل الميدان يسألون أبا هبة عن ابنته ويطمئنون عليها، وراح الشباب الذين سبق لهم أن افترسوها بنظراتهم غيظاً من تجرّئها على قيودهم، وربما نعتوها بأبشع النعوت، راحوا يشكّلون بأجسادهم درعاً للدفاع عنها وعن زميلاتها في التظاهرات، وكان العار ذاته، عار الحرية، الذي دفع والدها لطأطأة رأسه، هو الذي جعله يرفعه من جديد تفاخراً بابنته» (كلنا شركاء، 2012/6/13). نساء اليوم يقدن تظاهرات كبيرة، يرسمن على الجدران، يصفّقن، يغنّين في أزقة الثورة، يكسرن سجون الماضي، يعبّرن بأجسادهن عن شوقٍ إلى وطن، فيحيا الجسد على اتساع الرغبة في الحرية. تعمل الناشطات مع الناشطين ليلاً من دون حضور الأب أو الأخ الرقيب، ليطغى عصر التحرّر على ما كان يُسمّى سابقاً «عصر تحرير المرأة». يقول الصديق العزيز بطرس الحلاق: إن «تحرر المرأة ذاتياً لا بنعمة يسبغها الرجل المنفتح، وتحرر الرجل من فحولته ومن وهمه بأنه هو القادر على تحرير المرأة. وهل نرضى، بالعودة إلى نقاش فلسفي عن

العلمانية ووجوهها، أو فقهي ـ لاهوتي عن الصيغ المناسبة للمساواة بين المرأة والرجل؟ حراك الشبيبة يدعونا إلى موقف صريح، يقول بالمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة، دون تسويغ أو وأوأة فلسفية أو دينية» (السفير، 2012/3/16). تذكّرني كلمات بطرس بما قالته يوماً الناشطة «أم قتيبة»، الخارجة من صلب المجتمع التقليدي: «لم أعد أخاف الرجل، لأنني ببساطة لم أعد أخاف وحشية النظام!». كلمات «أم قتيبة» بيّنة، فسلطة الرجل الشرقي على المرأة من سلطوية ثقافة النظام الديكتاتوري، وتحرر المرأة هو قبل كل شيء تحرر الوطن من تهشّم ثقافة الجسد الذي أصابته!

في أزقة الرغبة

لم تعد الأنثى عورة، بل صارت ثورة، ولذا تُغتصَب: «لقد اغتصبوكِ لأن الثورة أنثى»، تكتب نساء الجولان المحتل على ثياب بيضاء معلّقة على حبل غسيل (2012/8/24)! أوجدت الثورة مساحةً جديدةً للأنثى، لأنها أوجدت زمناً جديداً، فالزمن الماضي كان رتيباً، لا بل خاوياً نبحث عن ملئه وكأنه ثقب في جدار! أما زمن اليوم، فيحمل حضوراً جديداً حين يخرج عن أطره التقليدية، ليرفض أن يبقى محض تتابع أعمى للحظات تتكرّر بلا جدوى، بل تصير كل لحظة استثنائية تتعارك فيها الحياة مع الموت، ويولد من رحمها شيءٌ جديد، فتنقلب اللحظة مدىً! في مدى اللحظة المتجدّدة، يكتسب وجود الأنثى معنىً جديداً من خلال النضال الذي تلتزمه ناشطةً، صحافيّةً، ممرضةً، منظّرةً، فنانةً، شهيدةً، أمّاً وأختاً لشهيدٍ، وحبيبة. «إن كانت رجولتك مشروطةً بغشاء بكارتي، فهي حتماً زائلة بزواله»، تقول لافتة أنثوية أخرى، فأنا لم أعد جسماً هزيلاً تمتلكه، لأنني أشتري حريتي، مثلك، بجسدي بدمي! في مدى اللحظة، يُسقط الجسد صورته القديمة، لأنه لم يعد أداةً نمتلكها نستعملها، أو محض حاجات نشبعها، أو سجناً نفرّ منه، بل نراه يخرج من قمقمه ليحتلّ بديناميكيته فضاء المشهد، لتتدفق الأجساد

إلى الشوارع غاضبةً، وإلى القبور حكاياتٍ لا ننتهي من سردها. الجسد يحضر الآن وهنا، بالأنوثة، بالذكورة، بالكلمات، بالهتاف، بالرقص، بالجراح، بالآلام، ليصير الجسد نفسه رغبةً في الحرية متجسدة. تالياً، تدفع المساحة الجسديّة الجديدة الفكرَ إلى أن يثور على ذاته ليولد جديداً من رحم الرغبة المتجسدة هذه، متجاوزاً القوالب القديمة التي حجّمت «الجسد» وأخضعته. يدفع انشقاق الجسد عن ماضيه الفكرَ إلى التخلي عن حلله القديمة المتعالية، لينبع من حياة الجسد، بتطلعاته ومعاناته، متجذّراً في فيض المعنى الذي توجده اللحظة حين تكسر إيقاعها القديم.

عندما صار الجسد مدينة

«النهار» 2012/10/24

في حقائق الهذيان

مدّتْ حليمة يدها بين فخذيها لتتلمّس تضاريسها الجديدة. لقد تشظّى غشاء بكارتها إرباً، شوارع، مدناً، حين مزّق الجنود ثيابها واغتصبوها. انهمر حزنها المالح مجدداً من عينيها، ومعه انسابت أصابع، بالذاكرة ملوثة، لتعبث بجسدها الممدّد، حوله تدور أسراب الجنود. أصابع تنعق كالغربان، تلاحقها، تحاصرها، وأصابع أختها تلهو بشعرها لتهدّئ من روعها. «لقد رحلوا، ورأينا البارحة جثثهم»، تقول الأخت الكبيرة، لكن حليمة لا تسمع وتعود إلى الهذيان. «جسدي دمشق، حليمة دمشق وحلمةٌ تُرضع ثوارها ألماً ونوراً»، تتمتم الفتاة. «القتلة هلكوا، حليمة لا تجزعي!» تتلعثم الأخت يائسةً، «لكن أريحا تؤلمني في خاصرتي» تردد حليمة، «في أحشائي تثور حمص، وفي رحمي يُذبح أطفال داريا». يرتجف جسدها، تبكي الفتاة ويدها على الزجاج تتلقف ارتجاجاته، فيسري في بدنها قصف الأحياء المجاورة، وتهتز حبالها الصوتية بصراخ نسائها. تفرغ حليمة دموع دمشقها المبلولة على لحم أختها حتى تغفو من التعب، فترى في حلمها ثيابها الممزقة وعسكراً يحومون حولها، وجندياً ثملاً يقول: «أنا الميت رقم سبعة أعلن انشقاقي عن عالم الموتى وهذه أصابعي!».

صمتاً فأمّي على الأسفلت نائمة!

رسمت البنت على الأسفلت جسد امرأة كبيرة. جعلتْ لها جديلتين ووجهاً ضاحكاً. خطّت بالطبشور فستانها، ورسمت عليه قلوباً كتلك التي تزيّن قميص نوم أمها. أحاطت المرأة بسرير كبير يتّسع لأطفال الحي الصغير. أشارت إلى بقية الأولاد من حولها ليصمتوا، فالأم نائمة ولا يحق لأحد أن يصدر صوتاً! أمرتهم بالتمدد على السرير الكبير فأطاعوا. أما هي فخلعت حذاءها، شبكت أصابعها بأصابع امرأة الطبشور الميتة ونامت على حضنها الأسفلتي، والأولاد يترقبون تنفسها بصمت. لكن أصابع سوداء أتت من بعيد لتعبث بالمرأة، بالطبشور، بالفتاة، بأريحا، فتصرخ حليمة لتستيقظ من نومها، فتجد أختها تعبث بشعرها، تداعبها، وتؤلمها من جديد خاصرتها، فتهذي[3].

حمادة، قصيدتك تحرقني!

«جميع من أعرفهم بكوا أول مرّة تظاهروا فيها. جميعهم بكوا إلا أنت، فقد بقيتَ تتفاخر بجفاف عينيك مدة طويلة. لكني ـ حمادة ـ كنت الوحيدة التي اكتشفَتْ كذبك! أتذكر؟ فاجأتْكَ مرّةً والدموع في عينك أمام جدار في سراقب، عليه كُتبت قصيدةٌ بلون الدم. كنتَ تبكي بمرارة لأنهم قصفوا أريحا. طلبتَ مني يومذاك ألا أفضح دموعك، فوعدتك. لكنك ـ حمادة ـ تمدّدت بعد ذلك في عتمة السجن وغبت. لا أعرف ما إن بكيت هناك، لا أعرف! كل ما أعرفه هو أنهم جلبوك لنا من المعتقل جثة، وأصابع يدك اليسرى مبتورة. أما أنا فقد بكيتك طويلاً ـ حمادة ـ حتى جفّ جسدي، ولم يبقَ مني إلّا قصيدتك تحرقني: «أريحا، تاهت عيناي بين حمرة الدماء في خاصرتك وحمرة الكرز الموعود بالحرية. أريحا، قطافك حرية، يا

3- فكرة الحلم هذا مستوحاة من صورة تناقلتها صفحات التواصل الاجتماعي وفيها تنام فتاة فوق صورة أمها في الشارع «طفلة تغفو في حضن أمها».

حزينة الجبل»[4]. لم يبقَ منك حبيبي إلا دموعك التي حبستَها تسري في وريدي، لم يبقَ من أمي إلا فتات الطباشير التي علقت على الأسفلت، لم يبقَ من المدينة إلا جسدي يشعّ قصيدةً بلون الكرز. لذا، كلما أغمضت عيني ذكرتك ـ حمادة ـ، وحلمت بامرأةٍ من طبشور، ورأيت حولكما أصابع مبتورة، وأصابع ملوّثة، وأصابع، أصابع، أصابع، فتوجعني خاصرتي وأنزف مدناً محطّمة. حمادة!».

هذه كانت قصاصة الورق المخبّأة في قرآن حليمة، جلبته أختها لتقرأ عليها سوراً كريمة، حين أغمضت حليمة عينيها، فصار جسدها مدينةً بلون الكرز.

4- القصيدة موجودة على أحد جدران سراقب.

مائتون لكننا نقاوم الموت بأجسادٍ تنضح حباً

«النهار» 2013/6/15

عن صرخة الطفل الأولى

يواجه العاملون في مجال الدعم الإغاثي ظاهرةً معقدة تتمثّل في ارتفاع نسبة الولادات بين اللاجئين السوريين. الظاهرة هذه مقلقة لأنها تترافق مع نقص حاد في الموارد اللازمة للعناية بالأطفال الجدد، كما تتلازم في غالبية الأحيان مع سوء الظروف الصحية والنفسية المحيطة بمجيئهم.

ترتبط هذه الظاهرة مع عوامل عدّة، أهمها الجهل، والفراغ الذي يسيطر على حياة الكثير من اللاجئين على نحوٍ قد يتضاعف معه تواتر الجماع الجنسي. لكنها ترتبط أيضاً مع رغبة الأهل في التعويض عن ابن أو ابنة أو قريبٍ رحل، ليأخذ الأطفال الجدد مكان من قضوا لا بل حتى أسماءهم. إلا أن هذه الظاهرة لا يمكن حصرها في العوامل السابقة الذكر. فلتكاثر الولادات، على تنوّع أسبابها المباشرة، بعدٌ آخر، وجوديٌّ على ما أعتقد، يكشف شكل العلاقة التي باتت تربط الحب مع الموت.

في أصول الحب الغامضة

يقارب سقراط، وبعده فلاسفةٌ كثر، الحبَّ كحالٍ من النقص الكياني الذي يستولي على العاشق أمام المعشوق. من فم أنثى، تتجلى حقيقة الحب كاسمٍ آخر لـ«الرغبة»؛ إنها الكاهنة ديوتيما (Diotima) التي تكشف

لسقراط أصول الإله إيروس (Eros)، إله الحب الجامح والشبق (كتاب «المائدة» لأفلاطون). تبحث الأسطورة اليونانية هذه عن أصول الحب، لتحيله إلى تمازج متناقضين اثنين: النقص والاكتمال. كابنٍ لأمه الغريبة بينيا (Penia)، يكون الحب (Eros) فقيراً، هشاً، متسكعاً في الطرق الموحشة بلا مأوى أو سريرٍ أو وطن. لكنه كابنٍ لأبيه بوروس (Poros)، إله الازدهار والقوة، يكون الحب جباراً، ساحراً، غنياً. هكذا يتجلى الحب كحالٍ من التناقض الأساسي بين النقص الذي لا يعرف الامتلاء، من جهةٍ أولى، والاكتمال الذي لم يصل إليه إنسانٌ، من جهةٍ ثانية. من هذا المنطلق، تتكشف طبيعة الحب كحالٍ من الفشل المستمر في الامتلاء المطلق من المحبوب. يفشل المحب في تحقيق اتحادٍ مستمر مع محبوبه، لأن الكائن البشري هو كائنٌ محكومٌ بالنقص الذي يتجلى، أشد ما يتجلى، في ظاهرة الموت التي تُخضعنا جميعاً لتفرّقنا.

يتحدد الحب هنا، على الرغم من كل ما يحمله من غنى، كحالٍ من النقص المستمر الذي يسيطر على المحب إزاء الكائن المحبوب، ليصير العشق حالاً متناقضة من الاعتراف بالموت، ومن محاولة تخطّيه في الوقت ذاته. إنه أولاً اعترافٌ بالموت حين يفشل العاشق في الاتحاد مع الكائن المعشوق إلى الأبد، فلحكاية الجسدين العاريين، مهما طالت، نهايةٌ يرسمها الموت يوماً. لكن الحب هو أيضاً محاولةٌ لتجاوز الموت، حين يكثّف العاشقان لحظة لقائهما الحميمي إلى حدٍّ قد ينسيان معه ثقل الزمن المفضي إلى الموت، ولو لبرهة. هكذا، تتحدد متناقضة الحب في سعي المحب إلى لقاءٍ مستحيلٍ مع المحبوب يتجاوز معه حدود الموت: مائتون نحن، والهشاشة تحكمنا، إلا أننا نرغب في الاتحاد معاً رغماً عن أنف الموت وجبروته!

بين الحب والموت

في مخيمات اللجوء، تتجلى العلاقة بين الموت والحب في ظاهرة

الإنجاب. يشكّل الإنجاب، على الرغم مما قد يحمله من أنانية أحياناً، محاولةً أساسية لمقاومة ثقل الموت علينا: لن يحدَّنا الموت لأن أطفالنا سيستمرون من بعدنا! إلا أن علاقة الحب مع الموت تتجلى أولاً في ظاهرة الجماع الجنسي نفسه، قبل تجلّيها في ظاهرة الإنجاب.

تُخرج الوحشية التي يمارسها النظام السوري، وما يترتب عليها من نتائج مدمرة على إنسانيتنا (حين تتبنى بدورها حال توحشٍ مضادة)، الجثةَ من المكان المخصص لها (المشفى، البيت، المقبرة...) إلى المكان العام، لا بل المشاع. يتجاوز العنف الخطوطَ الحمراء جميعها، ومعه تتبعثر الأجساد ـ الجثث مخترقةً المساحات العامة، ليسيطر الموت على المشهد. أمام مساحات الجثث والأشلاء المتفحمة، يصير الفعل الجنسي أكثر من أي وقتٍ مضى ملجأً يقصده الأحياء في معركتهم ضد الموت، لأنه يعطي الجسد مساحةً أخرى يستطيع فيها أن يعبّر عن فيض الحياة التي فيه. بمعنى آخر، يتحول الجماع الجنسي إلى صراعٍ ضد الحالة ـ الجثة: الجسد ـ المجنس في مواجهة الجسد ـ الجثة؛ الجسد الحي في حميميته مقابل الجسد الميت في مشاعيته؛ الجسد ـ الحب في صراعه ضد عبثية القتل. هكذا، يحيلنا الفعل الجنسي إلى شكلٍ أساسيّ من أشكال صراع البقاء، فتتسع معه مساحة المعركة الدائرة في الساحات والشوارع السورية، لتتفشى في كثافة اللحظة الحميمية حيث تُعارك الأجساد الحية، على الرغم من طبيعتها المائتة، الموتَ بالقُبَل!

أمام لا عقلانية الموت المسيطرة على المشهد السوري، حيث يصير القتل لذة، تتفجر الحياة وشهواتها على نحوٍ غامض، وفي الوقت عينه خطير. خطيرٌ أولاً، لأنه قد يؤدي إلى تدفق أطفال لا يتوافر لهم الحد الأدنى من ظروف الرعاية اللازمة لهم. خطيرٌ أيضاً، لأن الجماع تحت ظلال الموت قد يسمح باختزال شريك الحب إلى محض ملجأٍ ينسينا ثقل الموت لبرهة، فينقلب الجماع تالياً، على الرغم من تزايد وتيرته، لحظة

عنفٍ تفرّق أكثر من كونها لحظةً تجمع، فتقتل الآخرَ بدلاً من إحيائه. في الوقت عينه، يمكن للحياة المتفجرة من عمق اللحظة الحميمة أن تصير شكلاً جديداً من أشكال اللقاء، يعيد فيه الشريكان اكتشاف ما يسري من حبٍّ بين جسديهما في صراعهما المستمر ضد الموت. في عينَي الجثة المغمضتين غياب لا ينتهي، وفي عينَي المحبّ المغمضتين، لحظةَ النشوة، حضورٌ كثيف يقاوم الموت ويقول حقيقتنا: مائتون نحن، لكننا نقاوم الموت بأجسادٍ تنضح حباً!

مداعبة على جسد حبيب تزلزل عرش الديكتاتور

«النهار» 2013/7/20

هذه السطور هي محض لهوٍ يسخر من جبروت ديكتاتور. إنها تفتتح ذاتها باحثةً عن حنانٍ ما. لذا نراها تتسكع في شوارع ثائرة حيث يطفح حبٌّ غريب، لتضيع بعد برهة في إغواء مداعبة الجسد. كمسار سنونو بدأ رحلته قاصداً الهرب من الشتاء، تبتدئ هذه السطور مشوارها بحثاً عن شيءٍ ما، لتنحرف فجأةً في فتنة الاستطراد فلا تصل إلى نهاية.

حين يفلت الحنان في لحظة لا ننتظرها، يتلعثم المجرم، وتعترينا شهوةٌ جامحة في العناق

«نحن لا نعلم ما إن كان هذا الرجل الشهم يأتي لزوجته، «تاج رأسه»، بالورود الحمر وأنواع الشوكولاتة الغالية في عيد الحب. أو كيف كان يعبِّر عن عواطفه لـ«ابنة عمه» في بيتهما الصغير، فهموم العيش في بلاد يداس أهلها بجزمات الجند، ربما حالت طويلاً دون إبداء المشاعر الصادقة والعميقة»؛ مشاعر «بلغت في لحظة الحقيقة من الأَثَرَة حدّاً دفع صاحبَها للتضحية بحياته لئلا تضام زوجته او تُذلّ» (حسام عيتاني، «فالنتاين السوري»، الحياة 2013/2/15). «بالله عليكم، دعوني أودّع أولادي!»، يسأل الرجل شبّيحةً كانوا يسحلونه عارياً في أحد شوارع حلب. «أتسمح لنا باغتصاب زوجتك، لنأخذك إلى أطفالك؟». يسألون الرجل بخسّة، فيجيب متأرجحاً

بين الحياة والموت: «زوجتي هي روحي... ابنة عمي، وتاج رأسي!». أمام هذه الكلمات التي تقلب معادلات الفحولة كلها، يتلعثم المجرمون للحظةٍ تفلت من شناعة هذا الفيديو، ليستعيدوا وحشيتهم، فيتابعون ضرب الرجل بجزماتهم العسكرية، ثم يطلقون عليه النار. جثةٌ على الأرض ممدّدة، وفي ملامحها المتعبة شغفٌ غريب! هل أخبر الجيران زوجته كيف مات حبّاً؟ هل شاهدت المرأة هذا الفيديو الذي يفيض حناناً لها حين تغرق في الغياب؟ هل جاءت لتداعب وجنتَي حبيبها الذي كان يخجل من أن يداعبها حفاظاً على تقاليد عتيقة؟ لا نعرف. لكننا نعلم جيداً، حين نشاهد هذا الفيديو، أن رغبةً مرعبةً تتفجّر فينا، تجرفنا إلى مداعبة وجه مَن نحبّ قبل أن يفوت الأوان!

تولد «الأنا» من رحم المداعبة جسداً جميلاً، فسحةً للحنان

رغبةٌ استثنائية في جسد الآخر تجتاحنا وسط الدمار. تتعانق الأجساد بين الأنقاض حناناً، عنفاً، يتشبّث بعضها ببعضٍ بحثاً عن أمانٍ ما، في الوقت الذي تكتفي فيه المداعبة باللمس! تمرّ اليد على كتف الصديق أو الابن أو العشيق، على وجهه، على صدره، على جسده. لا تمسك اليد شيئاً، بل تستمر في العبور مقاوِمةً الرغبة في التوقف. تعترف المداعبة بجمال المصادفة حين تكتفي بالمرور. إنها تحتفل بحرية اللحظة الهاربة، وتفرح بأثرها السطحي العابر حين يتغلغل في المسام، لينخر عميقاً في «الروح». الجسد المداعَب يرتعش بكلّيته من حنان المداعبة، يشعر بوجوده، تطفو «الروح» على الجلد، تتكثّف فيه، في وحدةٍ غريبة بين «الجسدي» و«النفسي»، لتصير «الأنا» جسداً!

تضيع المداعبة في مساحات جسد الآخر، في أناه، لتعود فتولد من جديد بعد استراحةٍ قصيرة. تتسكع الأصابع يمنةً ويسرة، تدور بحثاً عن اللا شيء. تعبث بخصلات شعر متناثرة هنا أو هناك، فتتجلى حالاً من

التيه العميق تسير بلا هدف. تشبه المداعبةُ الاستطرادَ اللغوي حين يقطع تماسك خطابٍ ما، ليطيل اللهو في تفاصيل لا أهمية لها، فيتجنب الوصول إلى النهاية؛ «حالٌ من الهرب المستمر من الموت» (إيتالو كالفينو، عن الاستطراد اللغوي). المداعبة استطرادٌ، لكن في لغة الجسد، ولهوها يتجذّر في جمالية هذا الفرار من النهاية، ليمتد العبث حين يصير الجسد لغةً تبدع ذاتها. على اختلاف الفعل الجنسي الذي يسير إلى حتفه، إلى انطفاء الرغبة، تتمرد المداعبة على الخاتمة، لتتسكع في الجسد من دون غاية أو نهاية، فتخلق مكاناً وزماناً جديدين: مكانٌ للتيه من دون وجهة؛ فسحةٌ للحنان، وزمانٌ للهو يعترف بالعبور من دون أن يصل إلى خاتمة.

يقطّع الديكتاتور أبداننا بأحقاده، يكسّر عظامنا في معتقلاته، فيجعل من الموت شهوة، أو رغبةً في طلاق «الروحي» عن آلام الجسد. يجلد الواعظ والخطيب أجسادنا، يغرّباننا عنها في دونية قديمة أمام «روحيٍّ» يبقى بعيداً عنا. أما المداعبة فتبدع جسداً ليس إلا «أنا»، تجبله من حنان وطين، تلملمنا، وتوحّدنا.

يتلاثم العشيقان في الساحات فيتحرر الجسد من قبضة السلطان

في تونس، ردّت مجموعة من الناشطات والناشطين على القمع الديني والأخلاقي الممارس عليها بتكريس يوم الثاني عشر من تشرين الأول من العام الماضي يوماً وطنياً لتبادل القبل! تقاوم المجموعةُ القمعَ بقبلة، ردّاً على اعتقال عاشقين كانا يتلاثمان برفق في أحد أحياء العاصمة! شارع الحمرا في بيروت أيضاً، اجتاحته موجةٌ فريدة من الحنان العام الماضي، حين أخذت مجموعةٌ من الشبان والشابات تعانق المارة بشكلٍ مجاني ردّاً على الأحقاد الطائفية التي باتت تقيّد لغة أجسادنا: «غمرة ببلاش!». يقاوم حنانُ الجسد الحقدَ الذي تزرعه الأنظمة فينا، أطائفية كانت، أم مخابراتية أم عسكرية. شوارع الموت في سورية تشهد يومياً شغفاً حنوناً

حين تتعانق الأجساد في تظاهرة، في معركة أو جنازة، حين تقبّل أمٌّ قدمَي ابنها العائد على الأكتاف فوق خشبة، أو حين يداعب طفل صغيرٌ وجه أبيه ممرِّراً شفتيه على تجاعيده الباردة.

عندما لا تختم الخاتمة شيئاً يطول الطرب

ليس هذا المقال مقالاً، وليس هو مشهداً إيروتيكياً، بل حالٌ من فلسفة اللعب! إنه محض مداعبة عابرة تقدّم ذاتها طريقة حبّ، لا بل طريقة وجود. إنه رغبةٌ ثائرة في حنانٍ ما يقاوم تسلّط «المطلق» السياسي والديني والأخلاقي علينا، فيلهو برفق على صفحة ورقية ليخيف ديكتاتوراً في زمن الموت.

لا نعرف من قصته إلا امتداد الجسد المبتور

«النهار» 2013/8/17

اسمه عليّ. عمره عشر سنين أو أكثر. لا نعرف من قصته إلا أنين جسده المبتور يسرده في فيديو قديم. «لا أرى بعيني»، يقول الصبي، «فقدت يديَّ»، يضيف، ليعقّب بعدها على نحوٍ مثير: «لست حزيناً، يداي سبقتاني إلى الجنة، لا أحد مثلي!». يبتسم الفتى فيضيء وجهه بهياً متعالياً على حزنه العميق. يبتهج مصوّر الفيديو بكلمات عليّ الذي فتّتت وحشية النظام جسده العام الماضي، فيدفعه إلى قول المزيد ليجعل من قصة الصبي درساً دينياً في الصبر والإيمان. «لم أسمع، هل تستطيع أن تعيد مرة ثانية؟!»، يقول الرجل ليحضّ الصبي على تكرار حمده لله على مصابه. يعيد عليّ ما يريد منه الرجل أن يعيد، لكن دمعته الأخيرة تفضحه حين تنسلّ متساميةً على رتابة الإجابات الجاهزة.

في مشهدٍ تراجيدي، يمدّ الصبي يده المقطوعة نحو وجهه ليمسح دمعته. ينسى الجسد لبرهة أن لا يد له ليجفف عينيه، حين يتكشّف الحزن جامحاً عصياً! في لحظة الحقيقة هذه، تنهار الإجابات المعدّة مسبقاً، فيتجلى جسد الفتى ذاكرةً لا تقبل نسيان أعضائها المبتورة. إنه حاضر الجسد المشوّه حين يحلم بماضيه، فيتمرد على كلمات مسبقة الصنع يكررها صبيٌّ جميل عن السعادة. لا، ليس الفتى بسعيدٍ، وليست حكايته درساً دينياً، وحمْدُ عليّ لربّه على مصابه هو محض تكرار لثقافة شعبية

تربّينا عليها. تثور الدمعة على هذه الثقافة لتقول ما لا تجرؤ الكلمات الواعية على قوله: إذا كان «اللّه» ـ كما تدّعون ـ هو من أراد لجسدي أن يُبتَر على هذا النحو الوحشي، فأنا، الجسد، لا أريد ما يريده «اللّه» لي! لذا أمدّ يدي المقطوعة، متحدياً «قدري»، لأمسح دمعتي وكأن يدي لا تزال كما كانت، كاملة!

تتمرد دمعة الصبي على السكينة التي يحاول الفيديو أن يسجنه فيها. لذا، يمتد حاضر الجسد في ماضيه، فيعيش عليّ جسده متخيَّلاً: جسدٌ كاملٌ كما في الماضي، بيدين وعينين. يثور الجسد على واقعه، ومعه تثور كلمات الفتى حين تخفي بين أحرف رضوخها تمرداً فريداً. قيل لعليّ إن مصير أمثاله ممّن سفك النظام السوري دماءهم هو «الجنة». جميلٌ قولنا هذا، ويا مرحباً بـ«الجنة»، يتهلل عليّ، شرط أن تحتضن جسده كاملاً: «يداي سبقتاني إلى هناك!». لا يحدّثنا عليّ عن روحٍ ستنعتق من أوجاع الجسد، بل عن يديه اللتين لن يتخلى عنهما أبداً! بكلمات أخرى، لا يقايض عليّ جسده بـ«الجنة» بل يريد أن يربح الاثنين معاً. لذا، لا يتنازل الفتى عن أيّ جزء من كيانه، بل يفهم «الجنة» كحالٍ من اكتمال تحوّلات الجسد: جسدٌ كامل يستعيد يديه المبتورتين. قد لا يشارك بعضنا عليّاً إيمانه بحياةٍ تعقب الموت، لكننا لا نستطيع إلا أن نشاركه شغف جسده الثائر على الواقع و«القدر». جسدي متألمٌ نازف، يقول عليّ، لكنني أكبر من نزيفي. لذا يمتد جسدي في الذاكرة، ولذا تمتد كلماتي نحو «جنة» يكتمل فيها الجسد! جسدي الآن هنا، يقول عليّ، لكنه أيضاً «هناك». هكذا، يتسامى الفتى على الثنائيات المبسّطة التي تفصل «الروحي» عن «الجسدي»، فيقدّم ذاته جسداً متخيَّلاً تتوحّد فيه الأرض بالسماء.

لجسد عليّ إذاً ثلاثة أعداء. عدوّه الأول ثقافةٌ قَدَريّة لا تعرف من الرحمة شيئاً، بل تحكم على طفلٍ صغير بأن يعيش متألماً ليربح «الجنة»، ولذا وجب عليه الحمد! عدوّه الثاني روحانيةٌ مثالية قائمة على إنكار الجسد

أو اختزاله في كتلةٍ من لحم تتجمع فيها أعضاء متفرقة. من أجل هذا، لا يبالي عليّ بـ«جنة» لا تحتضنه كاملاً بيديه المبتورتين وعينه المفقودة. عدوّه الثالث ماديةٌ محضة تنحسر في حدود الحاضر، فتجهل ما في الخيال من حقيقة. لذا، يمدّ الفتى يده المقطوعة ليمسح عينيه، فيستعيد ماضيه الضائع. لذا أيضاً يستمر الفتى في بحثه عن جسدٍ متخيَّل يكتمل موحِّداً الأرض بالسماء. جسد عليّ إذاً، ليس بضاعة دينية نتاجر بها؛ جسد عليّ ليس كتلة لحم خاضعة لروح تتعالى عليها؛ جسد عليّ ليس محض قوانين فيزيائية؛ جسد عليّ حالٌ من امتداد الرغبة حين تتحدى قسوة الواقع المفرطة؛ جسد عليّ هو هويته كما يتخيّلها ويعيشها. من أجل هذا كله، لن يدخل «الجنة» إلا به!

يمتد جسد عليّ في تخيّلاته، فيستعيد أعضاءه الضائعة. جسد القاشوش امتدّ في أغنية ليستعيد حنجرته المبتورة. أجساد شهداء المطاحن امتدّت في الرغيف. أجساد أصحابنا الذين رحلوا، امتدت في حكايات ما زلنا نسردها ليعيشوا. جسد فداء البعلي امتدّ في الصور التي كان يلتقطها ليتوحد مع قضيته، فيصير استمراراً لها. هكذا، ينقلب الجسد هويةً ترسم علاقتنا مع العالم: أغنية، صورة، حكاية، ثورة لا تقبل بمحدودية واقعها. «لذلك ربما تبرّع عبد الله للتمدد في قبر صديقه، متذرعاً بالتأكد من اتساعه لجسده الشهيد. «سألوني بيسعو القبر؟ تمددت بالقبر وتحركت، وقلت: منيح بيسعو. وبكيت... جهاد شهابي.. خيّي، حقّك على راسي.. غلطت... السماء ما بتسعك حتى يسعك القبر!» (رزان زيتونة، «ريف دمشق: اللحظات التي تسبق موتنا جميعاً»، 2013/7/7).

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»، بمساعدة من جمعية «**مبادرة من أجل سورية جديدة**» ـ باريس، الكتب التالية:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.

هي صرخة... صرخة للإنسان السوري، أيــّاً كان موقفه مما يجري، ليهدأ وينــظر بعينيه ويستمع بقلبه لرسالة أخيه "هابيل" الذي يكرر قتله كل يوم، "قايين، أنا أخوك هابيل الذي تقتله، هابيل الذي أحرقت محلّه في إدلب، ونهشت جثته في دوما، واغتصبته في درعا، وأطلقت عليه النار في حمص...".

هــي تأملات... يناقش فيها الكاتب، وهو راهبٌ يسوعيّ، وجود "الله"، ليسأل، كما يتساءل كل واحد منا يومياً: "أين هو الإله مما يجري اليوم في سورية؟".

إنّها صدى لمعاناة وأفكار أي سوريّ يعيش "فصول الموت الطويلة"، النزوح، الألم، واستعادة الجسد الذي تحرر وطالب بالحرية.

هي مجموعة من المقالات الأدبية الفلسفية في كتاب، ينقل فيها الكاتب مشاعره وأفكاره حول الثورة السورية.

بيت المواطن
للنشر والتوزيع